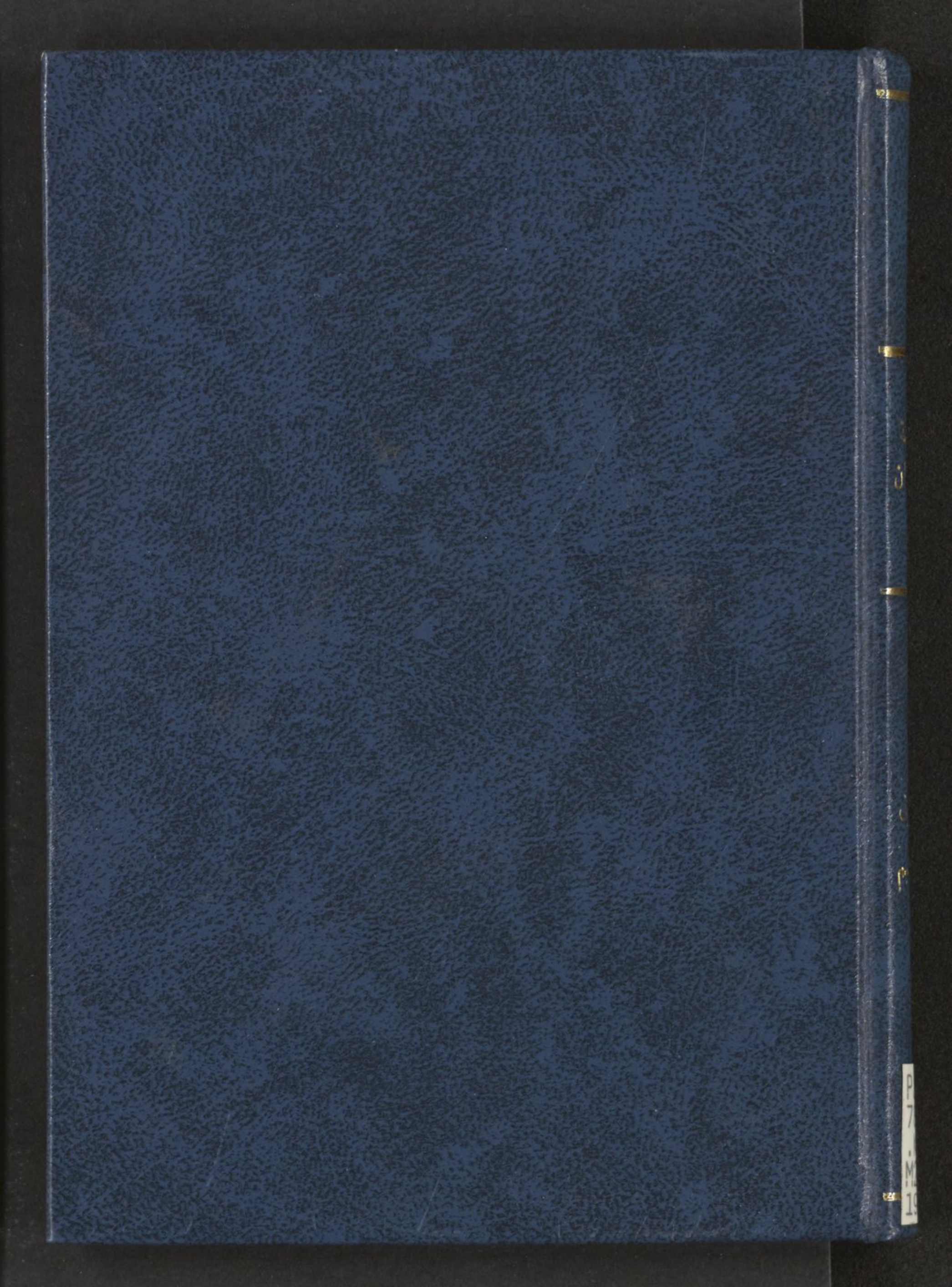






كتاب الهلال

مدرسة الشيطان

تأليف

تو[illegible]يق الحكيم



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٥٦ ربيع أول ١٣٧٥ – نوفمبر ١٩٥٥

No. 56 — November 1955

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

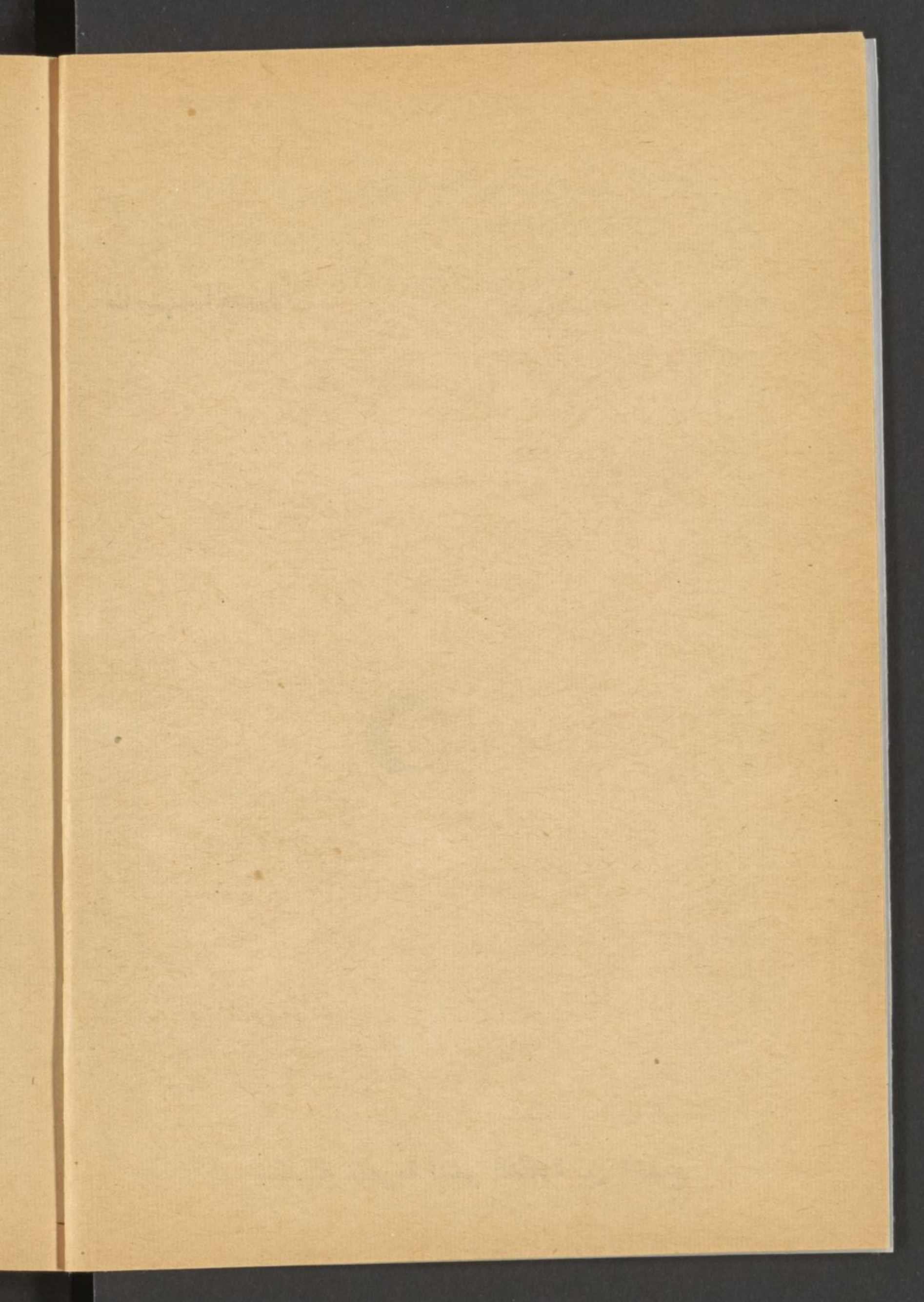
كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا – الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش صاغ – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



مدرسة الشيطان

تأليف

توفيق الحكيم

مقدمة

بقلم المؤلف

المقصود بالشيطان فى هذا الكتاب هو بالطبع « شيطان الفن » . أى تلك القوة الخفية التى تسيطر على رجل الفن فى فترة من فترات حياته ، فتركز كل تفكيره وشعوره فى روح الخلق الفنى .. شأنه فى ذلك شأن رجل الدين الذى تسيطر عليه قوة الروح الدينية فتركز كل تفكيره وشعوره فى جوهر الخالق السرمدى

كلاهما يصبح متصوفا ...

وفترة التصوف الفنى التى يمر بها الفنان ضرورية لتكوينه ، لانها امتحان لاخلاصه لفنه ، ولو على حساب نفسه ، لانه فى هذه الفترة يخضع كل وجوده للفن .. ويصبح تقديسه للفن طاغيا على كل شىء ، حتى على الحب ، وحتى على السعادة ...

فلا يستغرب قارىء مايجد فى هذه الصفحات من انهزام الحب والسعادة أمام شيطان الفن ، فتلك فترة

التصوف الفنى .. تلك الفترة التى يؤمن فيها الفنان بالفن ويشك فيما عداه ، حتى فى نفسه . فهو متشكك فى قيمة آثاره ، ساخر من أشخاص قصصه

وقد تسبق هذه الفترة مراحل الانتاج الفعلى ، ومراحل الاتجاهات الفنية من ذهنية واجتماعية ، وقد تعقبها ، دون أن يكون لها صلة تذكر بما تقدم أو تأخر

فالأمر هنا متصل بروح الخلق ، لا بنتائجه ولا بتطبيقاته أو استخداماته

انه نوع من المناجاة الخاصة أو التسبيح الشخصى بجوهر الفن أى روح الخلق الفنى

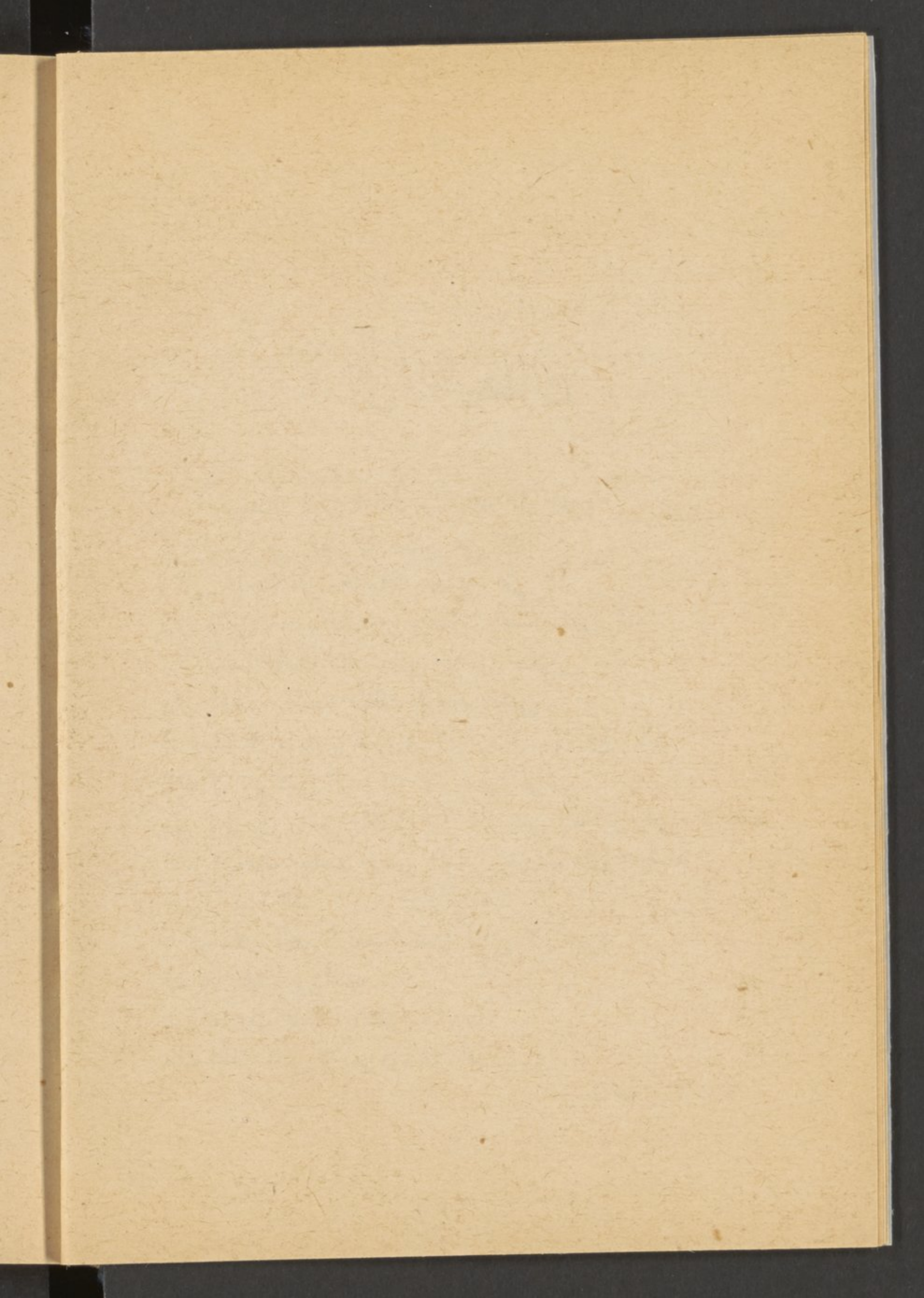
توفيق الحكيم



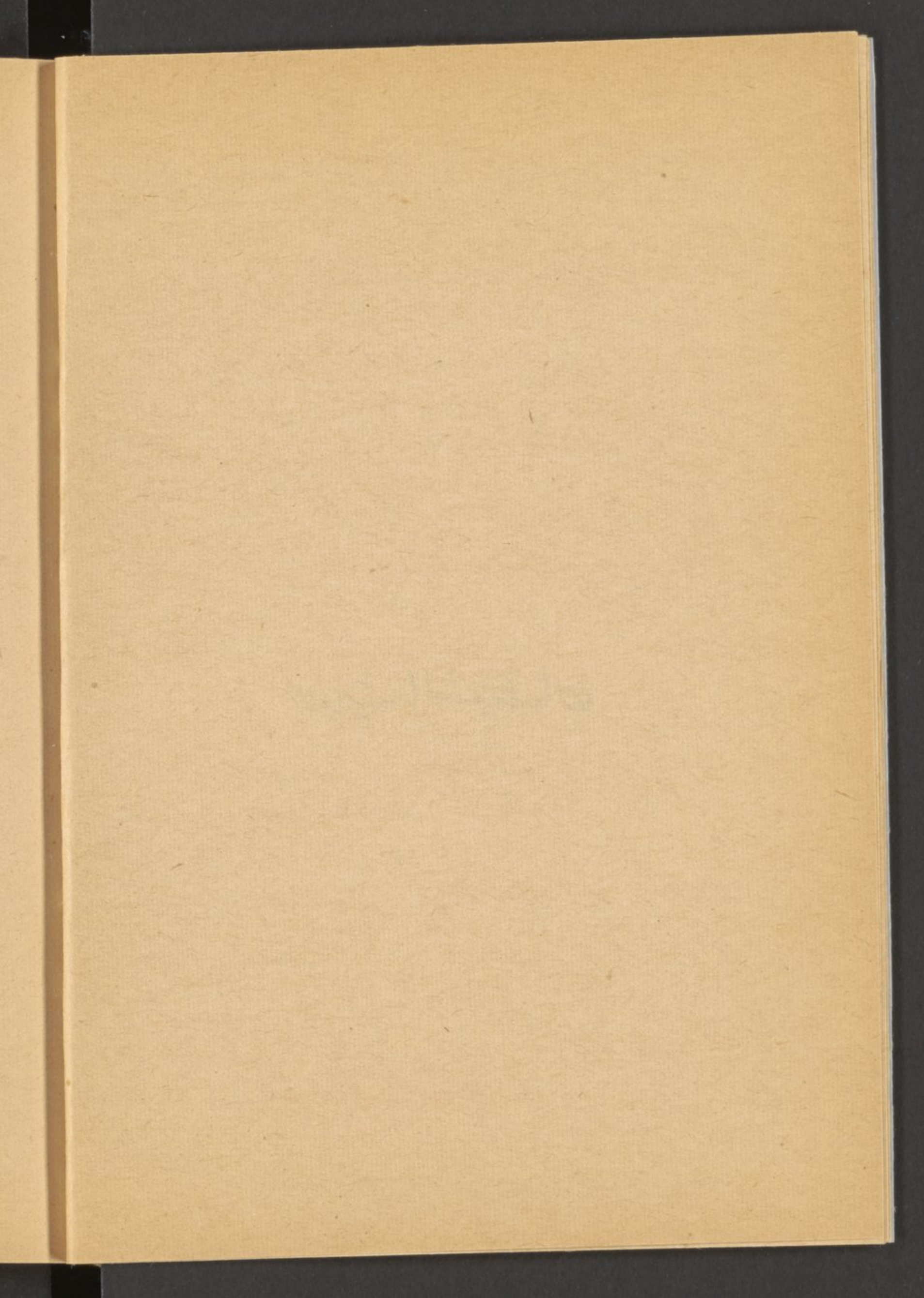
إلى الشيطان

ـ يا شيطان الفن ! لقد منحتك كل شيء
كل قطرة من قطرات دمى هى لك
وكل خلجة من خلجات نفسى هى لك
فان ظفرت بساعة من ساعات الهناء فهى لك
وان نمت فأنت ملك على عرش أحلامى
وان أفقت فأنت المالك لزمام أيامى
شبحك لا يذهب عنى فى أى زمان ولا أى مكان
انك لا تتركنى الا وقد صرعنى المرض
ولم يبق فى رأسى الكليل ولا جسمى النحيل شيء تأخذه
فاذا فتحت بعدئذ عينى قليلا وبدرت بادرة يقظة
فهى أيضا لك
يا شيطان الفن ! لقد أخذت منى كل شيء
فماذا أعطيتنى أنت ؟ !
ـ أعطيتك لذة « الخلق » ..!
تلك اللذة التى لا يعرفها غير اله !..

(ت . ا . ٠)



حديث الشيطان



وقع ذلك الحدث الذى أرويه فى ليلة من ليالى الشتاء فى منتصف الليل .. فى تلك الساعة الرهيبة التى أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلل من الامر . وكنت جالسا الى مكتبى أقرأ تحت نور ضئيل . وقد تكدست أمامى كتب يعلوها التراب . وكان الكتاب المفتوح بين يدى قصة « فوست » ، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التى يجلس فيها العالم الشيخ بين كتبه فى احدى الليالى وقد تهدل شعره الابيض على منكبيه وهو قانط من العلم ، راغب عن الحياة التى لم تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن فى مقدورها أن تعطيه البشر . وقد جلس يحصى على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التى عاشها . ماذا صنع فيها ؟ وماذا ربح ؟ انه لم يعرف الشباب قط . ولم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط . ولم تدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام . حتى فى ذلك الزمن الجميل يوم كان خلانه يقولون « الحب » كان هو يقول « المعرفة » ولقد جد حقيقة فى سبيلها وأحاط بكل ما سمح لعقل انسان أن يحيط به . لقد أعطى العلم كل حياته . والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب ، الآن وهو فى طريق الأوبة الى ذلك المكان المجهول الذى جاء منه (لو أن فى الامكان أن نسميه

مكانا !) ألا تراه عائدا اليه بصفقة المغبون ؟ ! أما العلم فانه الآن يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه ، اذ أضاع من أجله حياة كاملة فيها أشياء كثيرة غير العلم . انه خارج من الحياة ولم يحمل زهرة ولم يستنشق عبيرا من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره ووروده وغزلانه . انه لم يملأ قلبه بشيء . وانما قد ملأ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدود ، كما قال « هاينى » ، مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجمجمة الكبيرة . .

كل هذه الخواطر كانت تدور فى خلد العالم « فوست » وهو جالس أمام كتاب فى علم الفلك تحت نور ضئيل فى حجرة كالقبو من حجرات القرون الوسطى . ولم يكن حوله غير كتب مكدسة يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف . ولم يكن بالمكان أحد . ومع ذلك فقد سرت فى جسم العالم المتهدم رعدة . اذ شعر أنه ليس وحده فى المكان . فتردد قليلا ثم استدار بعينيه المنطفئتين يبحث فى أركان الحجرة ؛ فلم يجد أحدا غير ظلال نور المصباح تتلاحق فوق الحائط القاتم كالأشباح اللاعبة . فتملكه خوف لم يدر سببه . . . ووضع وجهه فى كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر . واذا صوت هامس يلقى فى أذنه :

— فوست ! فوست ! لقد سمعت ما دار فى نفسك !

فجمد الدم فى عروق الشيخ واستطرد الصوت :

— لا تخف . ألا تعرف من أنا ؟

لم يحر العالم جوابا ولم يجرؤ على الحركة وظل فى جلسته كتمثال من الشمع

فاستأنف الصوت :

ــ أنا الذى يستطيع أن يمنحك ما تطلب ...

هنا دبت القوة فى نفس الشيخ ، وزال عنه الخوف والتفت الى مكان الصوت فأبصر وجها غريب السحنة لا يشبه وجوه البشر ، يبسم له ابتسامة عجيبة . ولم يجد لهذا الوجه جسما ، فقد كان محاطا بالظلام . وتمالك الشيخ وتحامل ثم قال فى صوت واجف :

ــ من أنت ؟

فنظر اليه الوجه نظرة ثانية وأجاب :

ــ وهل يعنيك كثيرا أن تعرف من أنا ؟

ــ من أنت ؟

ــ دائما تريد أن تعرف . دائما حب المعرفة !.. أيها الأحمق الفانى !.. أما يكفيك انى أعطيك ما تطلب ؟ كل ما تطلب ؟

ــ من أنت ؟

ــ الشيطان

دهش العالم ونظر الى الوجه من جديد ، فألفاه يبسم تلك الابتسامة التى لا تتغير . فردد فى بطء ، وهمس كأنما يخاطب نفسه :

ــ الشيطان ..

ودنا الوجه قليلا من الشيخ وقال فى نبرة لطيفة :

ـ أتخافنى ؟
ـ الشيطان ...
ـ لا تخف ، انتظر
وفى الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمى تأتى طائرة طائعة من أنحاء الحجرة المختلفة وتلتصق بالوجه حتى صار انسانا ، وتغير الوجه فصار كوجوه البشر ، ومد ذلك الانسان يده الى كرسى بجانب الشيخ ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه : « ها أنذا انسان مثلك ، ينبغى أن أكون انسانا مثلك حتى تفهمنى ، انك أيها الانسان لا ترى الا من كان على صورتك ! انى فى خدمتك »
هدأ روع العالم قليلا ، وتذكر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه ، وتبرم بحياته ، فاهتز فى مقعده وصاح :
ـ أيها الشيطان ، أعطنى .. أعطنى ..
ـ اطلب ما شئت
ـ الشباب
لفظها الشيخ الفانى من أعماق قلبه المتداعى ...
فأجاب الشيطان فى تؤدة :
ـ لك ما طلبت . ولكن ... ما تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟ ان الشيطان لا يعطى لوجه الله !
فقال الشيخ من فوره :
ـ أعطيك العلم .. كل ذلك العلم الذى اكتنزته مدى ثمانين عاما
فقهقه الشيطان :

ـ لا حاجة بى الى هذه البضاعة . علمك لا ينفعنى ..
انى أريد منك شيئا آخر

ـ ماذا ؟

ـ نفسك

فلم يتردد الشيخ :

ـ هى لك

عندئذ أسرع الشيطان ومد يده فى الهواء والتقط قرطاسا نشره تحت المصباح وتناول ذراع الشيخ ، ففزع الشيخ :

ـ ماذا تصنع ؟

ـ لا تفزع من شىء . أريد قليلا من دمك تكتب لى به صكا على هذا القرطاس . هو عهد بينى وبينك : أعطيك الشباب وتعطينى نفسك ...

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه ، وتناول الشيطان العهد المكتوب ، ورفع يده فى الهواء ، وعاد فوضعها على جسم الشيخ ، فاذا شيخوخته تزول عنه كما تزول الاوراق الذابلة عن الشجرة الفتية . واذا العالم الهرم قد انقلب فتى فى العشرين جميل الطلعة بسام المحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب للحب ...

▭

لم اكد أنتهى الى هذا الموقف من قصة « فوست » حتى طرحت الكتاب وهمت فى وادى التأملات ...

كان الذى يملك على لبى فى ذلك الوقت هو حب « المعرفة » .

كانت كل أحلامى أن أفتح فى كل صباح نافذة تطل على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح فى بحار الأسرار . كان يكشف لعينى المستطلعة جديدا هو الخليق عندى أن أعطيه ما شاء من نفسى . فى تلك الليلة صحت فى الحجرة :

ـ أيها الشيطان ! أيها الشيطان ! ابرز الى وخذ منى ما تشاء وأعطنى ما أريد

ولم يبرز الى بالطبع أحد . ولم تنشق الجدران ولم تكن الصيحة التى لفظتها الا صوتا مدويا داخل نفسى ، وهو فى الحقيقة همسة لم يبلغ صداها باب الحجرة ، على أنى ما لبثت أن رحت فى شبه اغفاءة ، نصب فيها الخيال مسرحا ، واذا الشيطان فى ملابس « مفستو » الحمراء ، ويده على مقبض سيفه ، والابتسامة الخبيثة الساخرة على شفتيه وهو ينظر الى قائلا :

ـ أناديتنى ؟

فهمست :

ـ نعم

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ المعرفة

فضحك ضحكة عالية طويلة ، اهتزت لها الريشة القائمة على قرنه :

ـ هل تدرك مدى هذه الكلمة ؟

ففطنت الى مراده وصحت مستدركا :

ـ نعم . نعم . أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علما بمدى هذه الكلمة . انى ما أردت منك المستحيل . وما قصدت أن تعطينى « المعرفة » ذاتها . انما أردت أ نتمنحنى « حب المعرفة » . أريد أن تعطينى ما أخـذت من « فوست » . أعطنى « نفس »فوست التى أخذتها منه . أريد أن تكون لى نفس « فوست » أو نفس « جوته » !

ـ وماذا تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟

ـ كل ما تطلب

ـ الشباب

ـ هو لك

قلتها فى غير تردد . فنظر الى « مفستو » نظرة طويلة ، نظرة العجب أو الاشفاق ـ لو أن الشيطان يشفق أحيانا ـ أو نظرة التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غر قاصر ، وقال :

ـ سوف تندم

ـ أبدا

ـ أفهم أن يبذل كل غال فى سبيل « الشباب » . أما أن « الشباب » هو الذى يبذل ... اسمع نصحى أيها الفتى. انى لم أعتد اخلاص النصح لأحد . ولكنى أقول لك : لا شىء فى الوجود يعوض الشباب !

ـ المعرفة ، المعرفة ، المعرفة

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة ، وقال كالمخاطب لنفسه :

ـ كان فوست يقول ذلك أيضا فى صباه !

فقلت فى تحمس أعمى :

ـ حب المعرفة هو شباب العقل ، هو الشباب الأبدى ، هو السمو الانسانى الذى سجدت له الملائكة الا أنت ، أيها المتطاول على عرش فكرنا النورانى !

ـ عرش فكركم النورانى ! ماذا أقول لهذا الفتى ؟

ـ انى أعرفك وأبغضك ، انك هنا على هذه الارض لاعمل لك الا أن تطفىء هذه المصابيح العظيمة التى تزين هاماتنا ، ان فى يدك عصا طويلة كتلك التى كان يحملها « عفاريت الليل » يطفئون بها فى مطلع الفجر « مصابيح الغاز » فى الطرقات

ـ ما أسخف مصابيح الغاز !

ـ نعم ، ولقد ذهب عهدها بظهور الكهرباء ، واختفت معها « عفاريت الليل » بعصيها . انت أيضا قد آن لك اليوم أن تختفى بسيفك وريشتك ، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع « مصباحه » من أجل شىء

ـ لقد باع « فوست » مصباحه من أجل فتاة

ـ كان ذلك مصباحا من الغاز

ـ من الغاز أو من الكهرباء ، النور دائما هو النور !

ـ يا عدو النور . اعطنى النور وخذ منى ما تشاء

فقال الشيطان :

— O.K.

(كما يقول الامريكان اليوم . لأن الشيطان يعرف دائما كيف يتكلم بلغة العصر)

وخلع قلنسوته ومسح بهـا الارض بين يدى اغراقا فى التحية على طريقـة فرسان اسكندر دوماس ، وتحـرك للانصراف ، فاستوقفته :

ـ الا تكتب عقدا ؟

ـ لا ضرورة منك للعقود والعهود . انى واثق بشرفك

ـ ولكنى أنا .. معذرة .. انى لا أثق بشرفك

ـ جربنى هذه المرة

وانحنى لى انحناءة كبيرة ثم اختفى

□

مضى على تلك الليلة ثلاثة عشر عاما التهمت فيها الكتب التهاما وأحطت بمختلف العلوم والفنون علمـا وعشت مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين وأحببت فيهـا « المعرفة » حبا كالجنون . فلم أكن أطيق صبرا على جهل فرع من فروعها . وكنت أحيـانا لا أملك من النقود غير الضرورى لأكلى بقية الشهر وأصادف فى واجهـة الحانوت كتابا أو كتابين ، فما أحجم ، وأدفع فيهما ما معى ، وأتبلغ طول أيامى بمرق الأرز ونقيع الشاى . وذهب بى الجنون الى حد الرغبة فى الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب عليه . فنظرت فى كتب الفلك والعلوم الروحانية والرياضيات العليا . وكانت أيام راحتى تنفق فى هياكل الفن ومتاحف التـاريخ الطبيعى ودور الكتب والآثار . وكانت لى جلسات طويلة

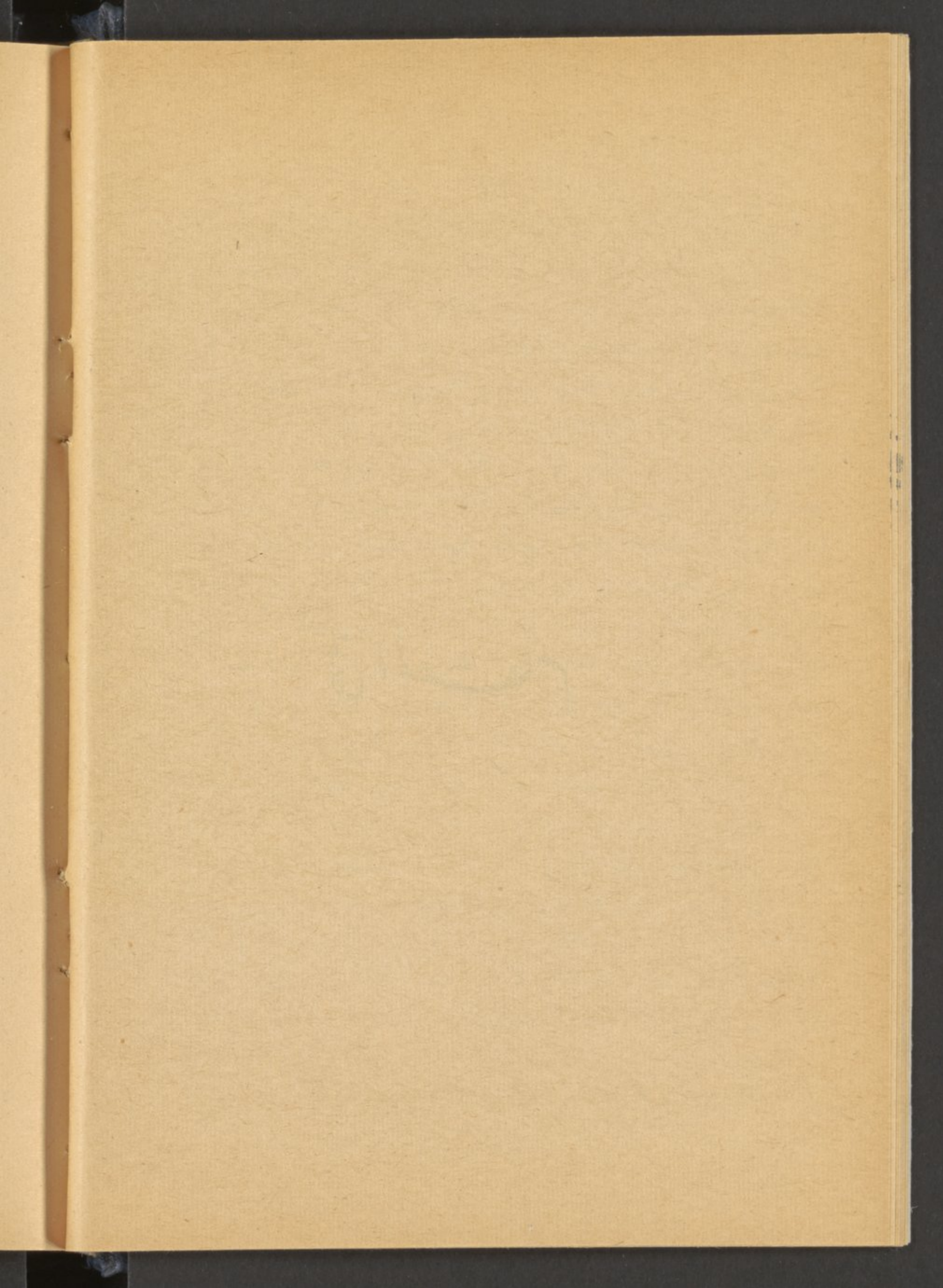
فى ركن قهوة صغيرة منفردة آوى اليها وحيدا أفكر ست ساعات أو سبعا متتالية فى مسائل عويصـــة من مسائل الفلسفة المطلقة ، أو قضـــايا الفكر ، أو مشـاكل العـالم السياسية والاجتماعية والاقتصـادية ، ولـكم هدمت فى رأسى مدنيات وأقمت بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية على نحو ما فعل أفلاطون وتوماس مور . ولكم ألحدت ثم آمنت وضللت ثم اهتديت . ولكم كتبت ومزقت . ولـكم جهدت فى سبيل تلك اللذة العليا التى حسبتها غاية الانسان التى ليست بعدها غاية . ولقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرق وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش . ولقد صرت كالهواء أو كالملائكة أسهر الليل سابحا فى أجواء الفكر فوق كتاب مفتوح تحت مصباح مضىء ، حتى اذا جاء الصباح رقدت وهربت من النـاس والضجيج ، الى أن نبهتنى آخر الأمر خادم عجوز قائلة :

ــ حياتك هذه ليست حياة . انظر الى وجهك فى المرآة !

فنظرت مليا فى مرآة خزانة الملابس فارتعت . ما كل هذه التجاعيد حول عينى . وما هـذا الظهر الذى تقوس وانحنى . وما هذا النحول وهذا الشحوب .. أتراني قد نسيت جسمى طول هذه الأعوام ؟ أم تراه الشيطان قد تقاضى الثمن دون أن أعلم ؟ وهالنى منظـــرى وأنا أضع اصبعى على تلك الخطوط المخيفة على صفحة وجهى كأنها صك بزوال زهرة الحياة الى الأبد ، فما تمالكت أن صحت :

ــ الشباب . الشباب . لقد أخذ الشباب !

فى المنام



اذا سكن الليل ، ورقد الناس ، وهدأت الكائنات ، قام هو فى خفة الطـــائر ، ورقة النســـيم ، ينسج قصصه العجيبة ، بأنامل لا يعرف وصفها انسان . ذلك هو الحلم . فنان حاذق يأتى أحيانا بالمعجزات فى رؤوس النائمين

وهو ككل فنان محترف كتب عليــه الانتاج فى كل ليلة ، لايبرأ من الاسفاف ، ولا يستطيع أن يجيد كل حين . فهو لا يخرج دائما فى كل الرؤوس آيات متناسقة البناء شيقة الحوادث مستقيمة التفكير . انه هو أيضا ضحية « الروتين » الذى يقتل الفنانين . لكنه اذا أبدع أوحى . وانى لأعرف كتابا يستلهمون الحلم . وانى لأذكر خبر كاتب روسى أو مجرى كان يأكل قبل النوم حتى الكظة طالبا التخمة راغبا فى الكابوس يصور له من الحوادث المخيفة ما ينفعه فى استنباط قصة . أما أنا فأبغض الكابوس ولا أريده ، ولو ألهمنى خير القصص . فان لحظة أقضيها فى جوه الخانق لاشق على نفسى من الجحيم . غير أنى لا أنسى رؤيا منسجمة الفكرة متصلة الخيوط ، رأيتها ذات ليلة . فاستطاعت أن تشغل بالى فى الصباح ، وأن تقبضنى على القلم ، وأن تستكتبنى هــذه السطور :

رأيت أنى معها فى حجرة واحدة . اما هى فغـــادة

حسناء . ذلك النوع من الحسن الذى أحبه . ولست أدرى كيف عرف الحلم ذوقى فاختار لى مثل هذه المرأة ! جلسنا معا وهى فى ثوب أخضر خفيف . وكأن بيننا حبا قديما ، والحلم خير من يلعب بالزمن كما يلعب المصور بالالوان . فلم نكن نعيش ، أنا وهى ، الا فى ثوان ، لكنها كالاعوام . لها ماض وذكريات . يحيط بنا اطار مصنوع من جوهر لا أدرى ما هو ، لعله ما يسمونه « السعادة » . وفجأة طرق علينا الباب . وظهرت خادم تعلن فى صوت خافت أن زوج الفاتنة قادم . هرج واضطراب وقعا فى الحجرة : فقفزت أنا من مكانى أبحث عن حذائى . ونهضت هى فى سرعة الريم الى المرآة تصلح من شأنها . وتملكنى الوهم وحرج الموقف فعجزت عن ادخال قدمى فى الحذاء ، ورأت هى ما أنا فيه . فصاحت بى :

– عجل بالخروج !

– لا أحب الى نفسى الآن من الخروج سالما . لكن الحذاء ...

– ألا تريد أن تنصرف ؟

– حافيا ؟ هذا لا يجوز . وهل أنت ترضين لى الخروج على هذه الحال ؟

فلم تجب وجذبتنى من ثيابى ، ودفعتنى الى الباب ، فخرجت أحمل حذائى فى يدى . واذا أنا – وجها لوجه – أمام رجل وسيم الطلعة أنيق الهيئة حيانى باسما فارتجفت

ونظرت الى عينيه ، فلم أر فيهما غضبا ولا سـخرية . وأشار لى فى كياسة أن أضع الحذاء فى قدمى على مهل . فقلت متلعثم اللسان :

ـ أشكرك يا سيدى على هذا اللطف ...

وحاولت أن أفعل ما أراد فلم أستطع ، فلقـد حرن الحذاء مرة أخرى ، وأبى أن يلين لتوسلاتى الحارة ولعرقى المتصبب فى هذا الظرف المؤلم . وخرجت « الحسناء » زاهية كالقمر ، فما أن رأت الرجل ، والرجل رآها ، حتى وقع أحدهما فى أحضان الآخر ، وقبلات ..

وشعرت فى أعماق نفسى وقتئـذ أنى لا أصلح للبس الحذاء ولا للانصراف ، ولا لصنع شىء فى هذا الوجود ! فجلست القرفصاء أنظر وأسمع ولا أدرى لى مصيرا . وفرغا من القبل ولكنهما ظلا متعانقين وهى تقول له :

ـ أهذا شغفك بى ؟! مضى عام دون أن أسمع عنـك خبرا ! ..

ـ ألا تعرفين ما حدث ؟ لقـد أمسينا من أصحاب الملايين

ـ ملايين ؟! كيف ؟ كيف ؟ أخبرنى ! ..

ـ أنا الآن « مليونير »

ـ أتقول حقا ؟ وافرحتاه ! تعال فقص على كل ما حدث منذ أن تركتنى وسافرت الى تلك البلاد النائية !

وتناولت يده ، تقوده الى الحجرة ، فعثرت قدمهـا

الصغيرة بشخصى الحقير ، ولم يزل موضوعا الى جانب
الحذاء . لكن أى حذاء . انى فيلسوف . كما ان هذا
الرجل المحترم ، زوجا كان أو غير زوج ، فيلسوف هو
أيضا فيما يبدو لى . ذلك أنى لم أكد أسمع أن الرجل
صاحب ملايين حتى أدركت أن لا محل الساعة للبكاء على
حب! ورنت فى أذنى تلك اللحظة كلمة هائلة ضاحكة :
« الذهب » ! كما رنت ولاريب فى قلب الحسناء فنسيت
كل شىء . وصرت فى نظرها ، أنا وحذائى على عتبة الباب ،
كائنين متساويين ! نسيت كل شىء وشيكا ، لان
« الذهب » كلمة جليلة عظيمة . لها صوت مدو مهيب
كصوت حوافر جياد مطهمة على أرض من الرخام الأصفر
... كلمة كالدخان السحرى ترى خلالها القصور
والعروش والحلى والتيجان ! ونسيت أنا أيضا كل شىء
كان ويكون . حتى ما أنا فيه من ذل وتعس . كما نسيت
أن أنهض من الارض وأن أرفع يدى عن حذائى الذى لم
يوضع فى قدمى ولن يوضع . ومرا بى هذان السعيدان .
فى حرص واحتياط حتى لا يعثرا بى فى طريقهما الى
الحجرة . فقلت فى أدب واخلاص :

ـ دوسا ، لا مانع عندى مطلقا من أن تدوسا !

واستحوذت على مشاعر غريبة . لست أعلم لها اسما بين
مشاعر الناس . فلم ألبث أن تقدمت نحو الرجل وقلت له
فى احترام عميق :

ـ لقد أشرق النور فى هذا البيت مذ حللتم به . وان

سيدتى كانت شديدة القلق كثيرة الهم لغيبتكم الطويلة حتى أسعدها الله أخيرا بأوبتكم الظافرة الميمونة

فالتفت الى الرجل فى استغراب خفيف . ولكن الدهشة كلها كانت دهشة المرأة . ولم أمهلها حتى تفيق . فوجهت اليها من فورى الخطاب :

ـ أما كنت ياسيدتى تذكرينه دائما فى شوق ولوعة ؟ ها هو ذا قد عاد ولا ينقصكما الآن الا خلوة تتبادلان فيها رقيق العتاب ، حتى تصفو القلوب ويتصل بينكما ما انقطع بطول الفراق

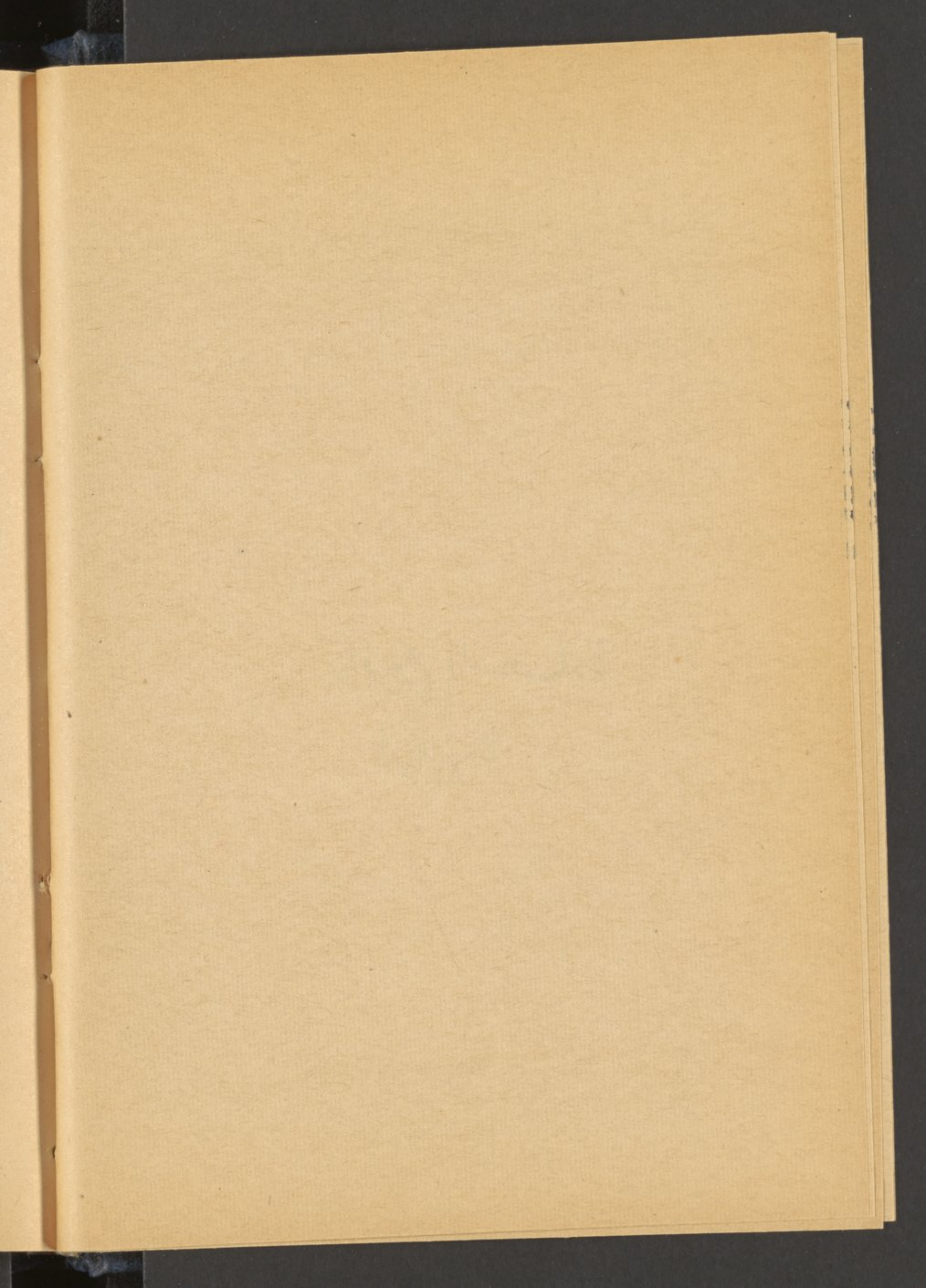
وانتظرت أن أحظى منها بجواب . فلم ألق الا سكوتا باردا ونظرات فاترة . وتحركا آخر الامر نحو الحجرة ودخلاها وأغلقا عليهما من دونى الباب . وأنا واقف جامد . وكأنى لا أعيش . وثبت الى نفسى قليلا . فاذا عرق يسيل من كل بدنى . لماذا صنعت هذا وقلت هذا ؟ وهل سألنى واحد منهما أن أكون لهما رسول سلام ؟ وهل هما فى حاجة الى ، حتى يدخل قلبيهما الصفاء ؟ ومن قال انهما كانا غاضبين ؟ انهما الآن مثل كل متحابين مؤتلفين لا يطلبان الى أحد أن يمشى بينهما بخير أو بشر . ينبغى أن أفهم الآن انى قد طردت من الفردوس حافى القدمين ..

وانتهى الحلم من تأليف قصته ، وسكت عن الكلام المباح وقد أدركه الصباح . واستيقظت فوجدت انى حقيقة عارى الاقدام وقد سقط اللحاف عنى . ولكن

ستار النسيان لم يسدل فى رأسى على الرواية . فقد تركت فى نفسى أثرا عميقا . وطفقت أقول : « حتى الحلم ، ذلك الفنان البارع ، لا يملك لمثلى من ذلك الجوهر الطيار الذى يقال له : « السعادة » غير مقدار قليل لا يشفى الغليل » ! ..



"راديوم" السعادة



استعرضت فى راسى البارحة شريطا ذا ألوان من ذكريات الماضى . أما الالوان فكانت خضرة داكنة لاشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمى « أورياج » ، ألقته يد الطبيعة فى بطن واد سحيق من وديان « الالب » ، ليذكر البشر بالفردوس المفقود

ولقد هبطت هذه الجنة فى شهر أغسطس عام ١٩٣٨ أحمل حقيبة واحدة ، فيها « بذلة » واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » لابن عبد ربه بكامل أجزائه

ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب ، ولم يكن شىء أبغض الى نفسى فى الاسفار من كثرة الحقائب ، فطال ترددى وأنا أتجهز للسفر : أأحمل « بذلة » أخرى وأترك « ابن عبد ربه » ؟ واستقر عزمى آخر الامر على ايثار « الزميل » أعبر به البحار والجبال ، وأصطحبه الى بلاد لم تطأها قدمه ، وأريه مناظر لم ترها عينه ، فللأديب على الاديب حق ، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة . فنبذت الثياب واخـــذت الاديب ، وانطلقنا ..

▭

بلغنا جنة « أورياج » ، ونزلنا فندق « الروض » وهو

بناء جميل اقيم على بساط من العشب ، قد اضطجعت عليه حور من الفرنسيات يتحدثن فى ظل الاغصان المدلاة الى ولدان وفتيان ، أو يصغين الى أنغام موسيقى يحملها النسيم ، تعزفها فرقة فى شبه ميدان وسط المصيف

وكانت مائدة طعامى بالفندق فى طرف ناء ، فلقد احتل من نزل قبلى الافاريز المشرفة على المناظر الرائعة ، ولكنى لم أحرم مع ذلك منظر مائدة الى جوارى جلس اليها فتى وفتاة ، قيل لى انهما تزوجا حديثا

لقد كانا زهرتين ناضرتين فى باقة « فندق الروض » . وكنت أنا دائما وحدى ، ليس معى من رفيق غير « ابن عبد ربه » وقد وضعته أمامى فوق المائدة الى جانب زجاجة « الفيشى »

نعم ، لم يكن يخطر لى على بال أن هذا الاديب يلازمنى على هذا النحو فى كل مكان . لقد اعتدت ملازمته كما أعتدت من قبل ملازمة عصاى

فأنا لا أخرج من الفندق فى الصباح ، ولا أعود فى المساء ، ولا أذهب الى قهوة ولا الى ملهى الا ومعى « ابن عبد ربه » حقيقة أن فى جوف هذا الاديب كثيرا من طلى الحديث ، وهو خير أنيس وجليس فى مثل وحدتى وعزلتى

ولكن .. أما كتب لى أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة وأعذب منه صوتا ؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفى هذين الزوجين السعيدين ، فيخيل الى أنى أرى منهما أشياء . انهما لا يتحادثان كثيرا ، وكل منهما يأكل وهو مطرق ،

ولقد لحظت أن الزوج ما يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفى اختفاءة لا يظهر بعدها الا على مائدة الوجبة التالية . وكان الذى يشغل فكرى وقتئذ البحث عن « قهوة » هادئة أجعلها مقرا لى وللأديب الذى معى وللورق الذى فى جيبى . فأنا لا مطمع لى فى رياضة شاقة كتسلق الجبال ، ولا رياضة هادئة كلعب « التنس » . وليس فى الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك ، وهى رياضتى الوحيدة التى أحذقها ... (أستغفر الله على كلمة « أحذقها » وهو الشاهد العدل على مبلغ حذقى اياها !) . وعثرت آخر الامر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدلت أغصانها كجدائل الشعر الكثيف ، على « قهوة » صغيرة فى شبه كوخ من خشب نثرت حوله المقاعد والموائد . فقلت فى نفسى : ها هنا مكانى . فاتخذت مقعدا فوق العشب ، والتفت أطلب الساقى يحضر الى فنجانا من الشاى . فاذا أنا أمام ساقية كالبدر . واذا أخرى على باب الكوخ كالشمس . واذا ثالثة وهى الصغرى تخطر فى خفة الغزال بين الموائد ، ناثرة قطرات اللطف والظرف ، فى صورة ابتسامات ساحرات ، ذات اليمين وذات الشمال . اذا قلت انى فى حياتى لم أر أظرف من هذه الفتاة ما كذبت ، واذا أقسمت أن هذه الفتاة ما خلقت الا لتتلقى نظرات الاعجاب من الناس لما حنثت . الدليل تلك الاعين التى ترمقها من كل جانب ، وتلك الافواه التى تناديها من كل مائدة . كان اسمها « فرانسواز »

وفرغت من دهشتى قليلا فأجلست ابن عبد ربه على مقعد خال بجوارى ، وأردت أن أشير الى الفتاة لاطلب فنجان الشاى ، واذا غيرى يسبقنى :

– فرانسواز ! كأسا من البيرة

فانتظرت لحظة . ثم هممت بندائها . واذا صوت آخر :

– فرانسواز ! كوبا من شراب البرتقال !

فسكت مرغما . ثم عاودنى الامل فرفعت رأسى اليها واذا صيحة :

– فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفت فاذا ذلك الزوج الشاب الذى يهجر زوجته فى الفندق بعد كل طعام ، قد جاء فى شبه ركض وجلس الى مائدة قرب مكان الفتاة ، وطفق يحدثها حديثا ازدحم به فمه ، وهى تضحك أحيانا ضحكا رقيقا يتمايل له غصنها الرشيق ، وأشرقت السعادة فى وجه الشاب . واذا صفاؤه قد عكره صوت فتيان آتين بملابس « التنيس » يصيحون قبل أن يجلسوا :

– فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفتت اليهم الفتاة وابتسمت . ثم استأذنت محدثها وانطلقت اليهم . فاستقبلوها فى شبه هتاف وظلوا لحظة يتضاحكون . هؤلاء فيما يخيل الى فتيان من طلبة الجامعات فان هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينم على ذلك . وكان أكبرهم سنا فتى معتدل القامة جميل المنظر فى سروال « التنيس » الابيض وقميصه الخفيف وسواعده

العارية . وكان هو اكثرهم اهتماما بأمر الفتاة . طفقت
أنظر الى كل هذا ، وذكرت ان ذقنى لم يحلق منذ ثلاثة
أيام ، وتلك أيضا عادة من عاداتى . فأنا لا أفكر فى ذقنى
وهندامى الا مصادفة . ثم ذكرت قلنسوتى « البيريه »
التى تهبط الى أذنى كأنها « لبدة » وعصاى الغليظة وكتابى
الضخم بغلافه السميك القديم ، كأنه سفر من أسفار السحر
والتنجيم . فأدركت أن منظرى لن يؤهلنى الى طلب فنجان
الشاى فى هذه القهوة ! أأنهض الى غيرها ؟ هذا مستحيل .
ان هذا الجو الشعرى الجميل الذى يكتنف هذه القهوة
هو فى ذاته متعة دونها كل متعة . وطال جلوسى . وطالت
مشاهدتى ، ومر الوقت سريعا دون أن أشعر به ، وقام
اناس ، وقعد اناس ، وانا فى مكانى لا يشعر بى احد . ولا
أطلب شيئا الى احد . لقد خجلت ان استرعى التفات
الساقيات الثلاث ما دامت انظارهن لا تريد ان تقع على
مثلى ! وجعلت اسائل نفسى فى نبرة مريرة ، وروح كسيرة :

ـ ماذا يمنعنى من ان اعيش كما يعيش هؤلاء الاحياء ؟
ما احسبنى قد بلغت سن اليأس ، وانا الآن بالمصيف فى
شهر راحة . ما يمنعنى من حلق ذقنى كل صباح وترتيب
شعرى وتعريضه للشمس والهواء . وارتداء مثل هـذا
السروال الابيض الجميل والقميص ذى السواعد العارية ؟؟
لم أتلق جوابا عن سؤالى . ولكن نظرة منى وقعت على
صديقى « ابن عبد ربه » الموضوع الى جانبى ادركت معها
فى الحال من المسئول عن كل ما صرت اليه !

نعم ، واأسفاه ، نعم . ووددت لو أنقض عليه فأقطعه تقطيعا وامزقه تمزيقا . ولكنى اكتفيت بحمله بين يدى فى سخط شديد . كمن يحمل كتابه الذى سطرت فيه لعنته وقدره المحتوم

وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتة الى . وفطنت الى وجودى ، فأسرعت الى تقول فى ابتسام واعتذار :

ــ نسيتك يا سيدى

فأجبتها فى ابتسام وتسامح :

ــ لا بأس . انك على كل حال لم تنسى شيئا ذا بال

وأحضرت الى ما طلبت . ولم نتبادل كلاما أكثر من ذلك . ولكنى سعدت به . فنحن معشر الادباء المساكين نرضى بالقليل ، ويكفى لاسعادنا والهامنا أتفه الاشياء

▭

كثر اختلافى الى هذه القهوة . وكنت فى كل مرة أرى عين الاشخاص يلعبون عين الادوار

فالطالب فى لباس « التنيس » ينادى « فرانسواز » فى كل لحظة ، ولا يشبع من الحديث معها ، ولا يضن بطلب مشروب بعد مشروب ، استبقاء للساقيــــة الجميلة الى جواره . ولقد سمعته ذات مرة وقد انفلتت من فمه هذه الكلمة :

ــ أوه ! لقد خربت وافلست . واضعت كل نقودى فى هذه القهوة !

ويلبث فى سروره وضحكه وهذره ساعة ثم يمضى الى ملعبه ، مطوحا « بمضربه » فى الهواء فرحا سعيدا

ويأتى الزوج الشاب ، وقد ترك زوجته فى الفندق وحيدة متذمرة تعسة مرتابة . فينادى : « فرانسواز » . ويطلب السعادة هو ايضا ساعة فى عينيها الباسمتين غير مبال بخطر فقد زوجته فى هذا السبيل

تأملت كل هذا لحظة . ثم قلت لنفسى :

ـ هذان شابان جميلان . ومع ذلك فقد أضاعا شيئا فى سبيل لحظة هناء الى جوار هذه الفتاة . ماذا أعطى أنا من أجل لحظة تحادثنى فيها هذه الفتاة ؟ نعم ، هنا كل سعادتى ومطمعى : ان استرعى اهتمامها لحظة وان تقبل على تحادثنى حديث المشغوف بمحادثتى !

لكن .. هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليت بصحبة هذا الزميل المنحوس ؟ وانكببت على ورقى الذى كنت قد نشرته . وفتحت صدر ابن عبد ربه امامى ووضعت فيه همى . وكأن القدر شاء مداعبتى او اراد متعمدا ان يكشف لى قليلا عن جوهر نفسى المحجوب عن عينى ، فأحدث المعجزة . واذا الفتاة تدنو منى مبتسمة متعجبة وتقف لحظة ترمق سطور « ابن عبد ربه » وهى صامتة ، وفطنت الى قربها ، فاضطرب قلبى ورفعت رأسى . فابتدرتنى قائلة فى همس :

ـ أهذه كتابة صينية ؟!

فضحكت وقلت :

ـ بل عربية

ـ ما أعجبها ! أتستطيع ان تقرأ هذا « النبش » فى سهولة ؟

ـ بالطبع . وأكتبه أيضا

ـ وتكتبه ؟

ـ نعم . انظرى ...

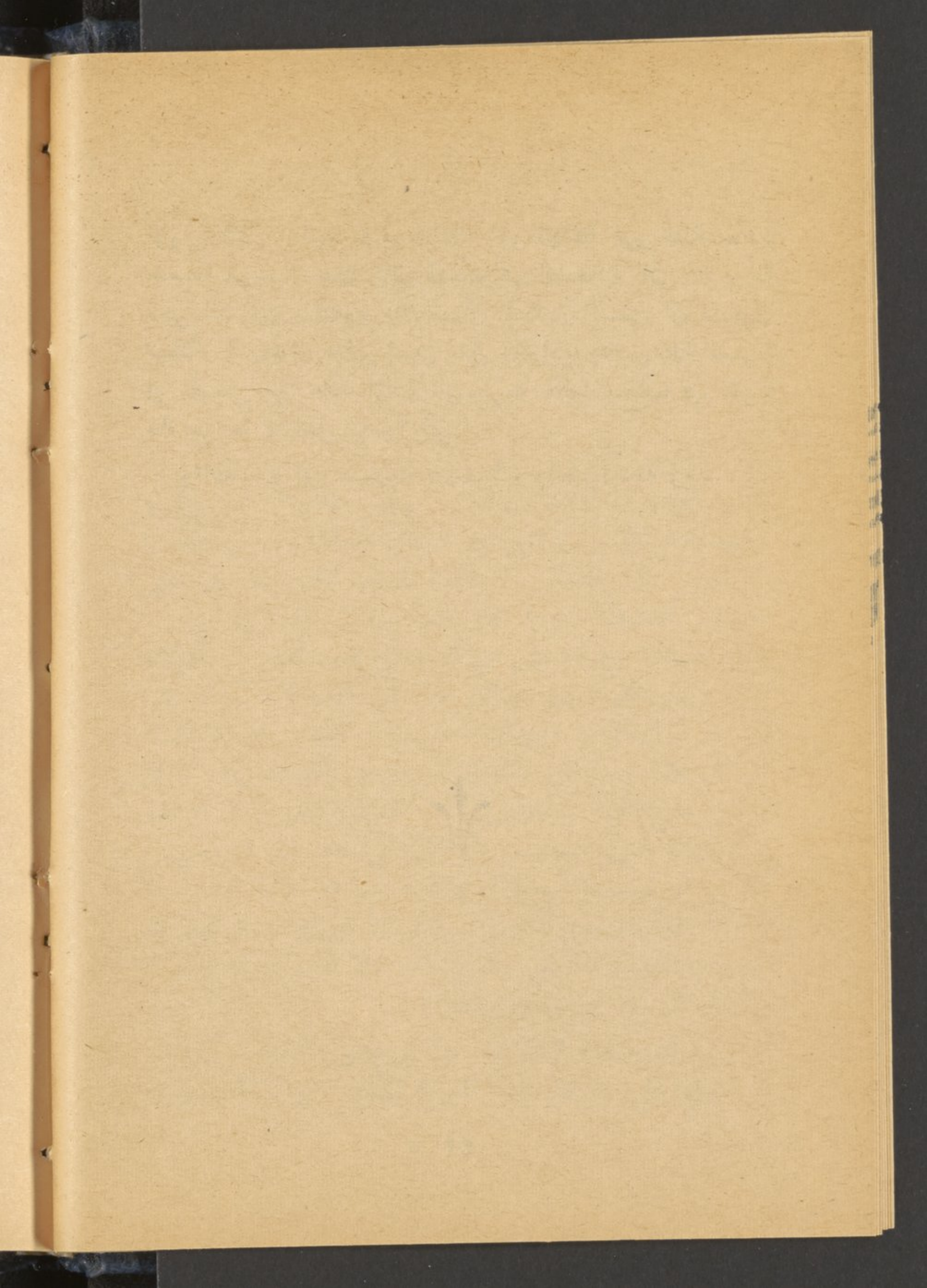
ومضيت أكتب أمامها . وهى دهشة مسرورة . وجعلت تستفسرنى كثيرا من معانى الكتاب . وقاطعها النداء من كل جانب . فكانت تذهب لتلبى ثم تعود الى تحادثنى مغتبطة ، وقد تطرق الحديث الى مواضيع كثيرة . وقد أدركت من حديثى أن الكتابة صناعتى ، فأقبلت تعرض على ألوانا من حياتها تصلح قصصا . وبدا على السرور أول الأمر . وبدأت احترم ابن عبد ربه . فبفضله تم كل هذا ، ولكن ماكدت أتردد على القهوة مرة أخرى وتقبل على الفتاة تحادثنى ذلك الحديث الطويل فى مختلف الشئون ، حتى أحسست أن كل شىء قد تغير فى نفسى ، فالأشجار ليست الأشجار ، والجنة ليست الجنة ، ووجهها لم يعد فيه السحر القديم ، والجو الشعرى قد ارتفع عن القهوة ، ذهب السحر وتهتكت أستار الأسرار . وما أنا والفتاة الآن الا صديقان ثرثاران !

وشعرت عندئذ أن لاشىء عاد يربطنى بالقهوة ، ووددت لو أتركها الى غيرها حتى أتفرغ للعمل ، وأتم الفصول

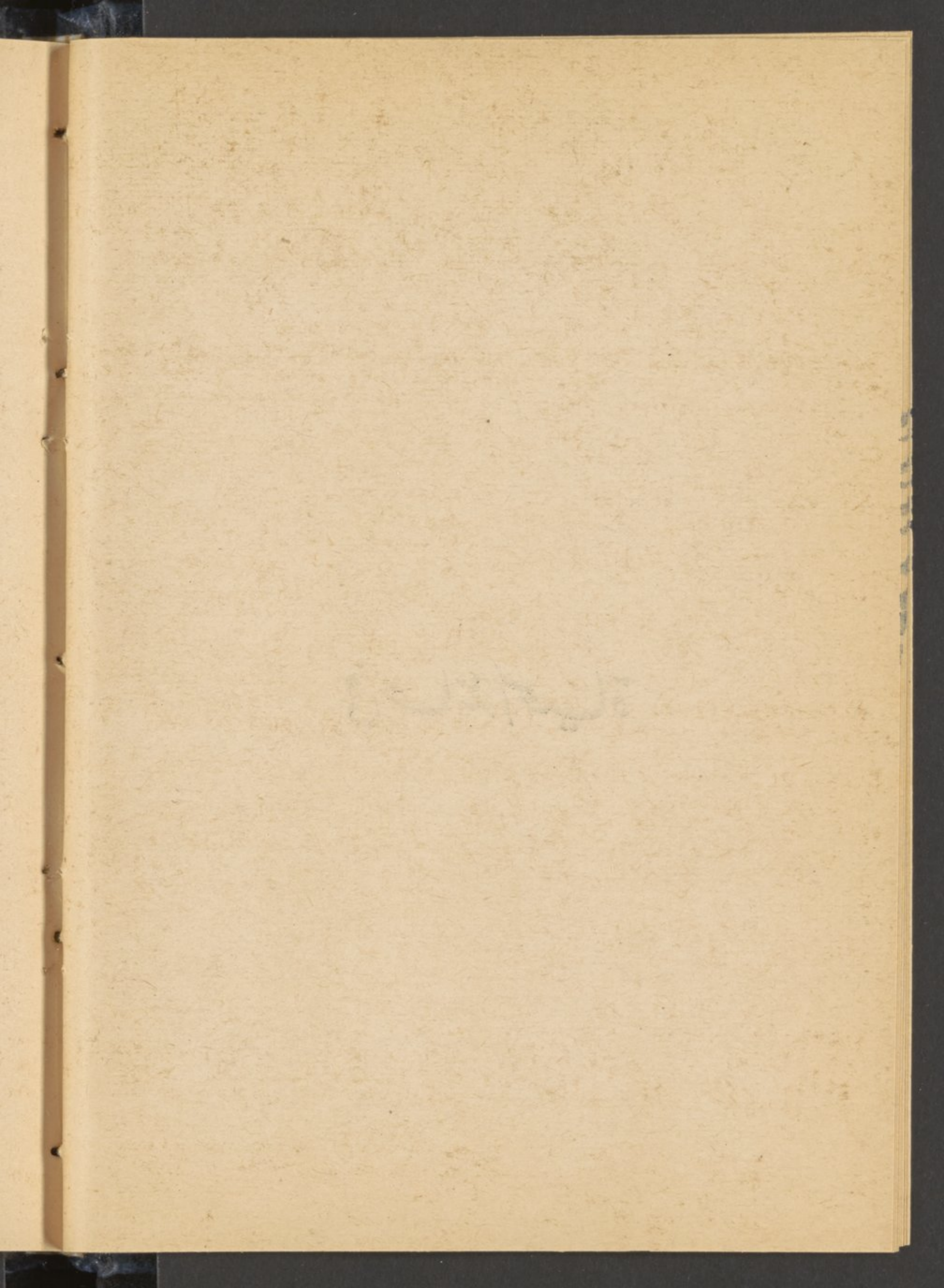
الأولى التى بدأتها مدفوعابتلك القوةالهائلة من لحظةسعادة خفيفة مرت . عند ذاك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين ، لنقوم بالاعمـال الـكبار ينبغى أن تـكون بمقدار !! مقدار صغير ثمين مثل «الراديوم» . فاذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فانها تنقلب فى نظرنا ماء قراحا لا فعل له ولا أثر

وتأبطت « ابن عبدربه » أخيرا ، وانصرفت به وقد ... انتصر !





في حانة الحياة



ساقون ثلاثة فى « حانة الدنيــا » اذا ناديتهم أقبلوا بالـكئوس وهم يرقصون ، وفى عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا ترتاح لها نفس ... أول « جرسون » من هؤلاء طفل ، وهو أبدا طفل وعمره خمس سنين ... ويدعونه « الحب » ، والثانى رجل وهو أبدا رجل وعمره أبدا أربعون سنة ... ويسمونه « الشيطان » ، وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » . والموت هو «البارمان» لهذا الحان . وهو الوحيد من بين الثلاثة الذى لم أفكر يوما فى الدنو منه ، وقد زهدت من أجله فى الشرب على «البار» !. منظره لايعجبنى وحسبى منه وقفته الوقحة و «فوطته» القذرة التى بها ألف خرق وضحكته التى كسعال المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير ادمانه على التــدخين والمغيبات . انه « يقرفنى » ومحال أن أتناول شيئا من يده طوعا واختيارا ...

اما « الشيطان » فيعجبنى بطلاقتــه وزلفاه وذكائه . ولولا علمى أنه محكوم عليه غيــابيا ... وأنه من أرباب السوابق فى جرائم النصب والاحتيال ... لركنا اليه ... أنا وكافة « الزبائن » ...

أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل !

انه يأسرنى بلطفه ورقته ... أجل انه الساقى الوحيد الذى أتناول من يده كل شىء... وبلا تحفظ . غير مبال ان كان مايعطينى سما أو « شمبانيا » ...

ناديته فى الربيع الماضى فأقبل يحمل الى الكأس ... ووقف ينظر الى برقة ساحرة ويبتسم الى بابتسامةخلابة تحوى أشياء لم أكن ادركها فى ذلك الحين :

ـ ماذا تريد ؟... (البقشيش) ؟.

ـ كلا .. أريد ألا تطلب منى شيئا بعدذلك ... اياك أن تطلب قليلا من الثلج ... ان طلبت قليلامن الثلج فلن آتى لك بطلبك ...

ـ اطمئن .. لن أطلب منك شيئا .. أبدا .. لا (ثلج) ولا (صودا) ...

وأقبلت على الكأس ... لكنه استوقفنى أيضا . وغافلنى وحمل الكأس وجرى قليلا . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال فى نبرة ملائكية :

ـ سأعذبك ...

غير أنى لم أسمع ولم أر ولم أدرك الا شيئاواحدا : انه حمل الكأس وابتعد . فارتجفت وصحت مدفوعا بالرغبة والظمأ ...

ـ هات الكأس يا جرسون ...

فاقترب به من شفتى ... وقال بنفس الصوت الموسيقى العذب :

ـ سأعذبك ...
ـ هات الـكأس يا جرسون ...
ـ سوف تلعننى ...
ـ أنا ؟؟!
ـ سوف تمقتنى ...
ـ أنا عبدك ...
ـ سأعذبك ...
ـ هات الـكأس ...
ـ خـذ !.

□

ومضى عام :
ـ يا جرسون . يا جرسون !
ـ ماذا تريد ؟
ـ الثلج ... فى الحال ... الثلج !
ـ لقد انذرتك
ـ ارجو منك ... قطعة واحدة من الثلج !
ـ قد انذرتك
ـ قطعة ... ولك ما تريد ...
ـ هيهات .. هيهات !
ـ لاتبتعد ؟.. لا تهزأ بى . لن تتركنى قبـل احضار الثلج ...
ـ هيهات . هيهات !

ـ لقد خدعتنى ... ما كنت أظن طفلا بريئا جميلا يجرؤ على هذهالجريمة : يقدمالى بدل ماءالكروم ماءالنار !

ـ الكروم والنار ... يالك منغر ساذج !... الخمر والنار هما عنصرا حياتى ... وهما لون خدودى ولون شرابى !..

ـ قطعة من الثلج ... ولك ما شئت !

ـ محال ...!

ـ رحماك !..

ـ لو كنت عاقلا لأدركت أن الثلج ليس فى عهدتى

ـ لماذا ؟؟... لماذا ؟؟...

ـ سل صاحب الحان ...

ـ انقذنى ... لعنة الله عليك

ـ الثلج لايمكن أن يكون فى عهدتى

ـ آه يا ملعون !! وما العمل ؟

ـ عليك بجرسون آخر ؟؟

ـ جرسون آخر ... من ؟؟ من ؟؟

فجرى « الحب » الى « الشيطان » وأسر اليه كلاما ثم أشار بيده الى أنا « الزبون » المسكين ، واذا « الشيطان » قد أقبل نحوى :

ـ أنا .. هو ذا .. ماطلبك ؟.. أنا القدير على تنفيذ رغبتك ... مرنى أطع أيها السيد النبيل !

ـ الشيطان !!

ـ خادمك !.

ـ كلا مستحيل ! أنت من أرباب السوابق

ـ مظلوم !.. وربك لم يثبت ضدى شيء ... لا تصدق وشايات الناس . وربك انى متهم زورا وبهتانا .. هاك .. «رخصتى» .. بيضاء كقلب الجنين .!

ـ أليست ... مزورة...؟؟ على كل حال أنا فى حاجة اليك الآن ! انى فى حاجة شديدة اليك ... أسامع ؟

ـ محسوبك ...

ـ ... الحب .. هزأ بى .. انتقم لى ..

ـ آسف ! الحب زميلى وليس لى عليه سلطان

ـ ما العمل اذن ؟...

ـ دع الانتقام ... وفكر فى الدواء ...

ـ الدواء ... الثلج ... قطعة من الثلج ... اذن !

ـ الثلج ليس بالدواء ... الدواء هو !

ـ هو !! هو ماذا ؟ تكلم ؟

ـ هو الداء ... وداوها بالتى كانت هى الداء ...

ـ ماذا تعنى ...؟

ـ أطلب من « الحب » كأسا أخرى ...!

ـ قل سما آخر ، نارا أخرى سائلة فى كأس صافية !. لا ، أيها النصاب لقد خدعت مرة ...

ـ ومن ادراك ؟. ربما فى هذه المرة ؟

ـ اخرس ، يا منافق ... دوائى الثلج ... أنا أدرى

النـاس بدوائى ... اعطنى قطعة من الثلج ... أسرع بالثلج ...

ـ محال ...

ـ أنت أيضا ...

ـ الثلج ليس فى عهدتى ...

ـ كيف ذلك ... كيف ذلك ؟..

ـ سل صاحب الحان !...

ـ وما العمل ؟... ارحمنى !...

ـ أدلك على « جرسون » آخر ... وأوصـــيه بك خيرا ... فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام ...

وجرى « الشيطان » مهرولا الى « الموت » وأسر اليه كلاما ، ثم أشار الى أنا « الزبون » ، فتقدم « الموت » فى بطء وهو يبتسم ساخرا :

ـ من الذى طلبنى ؟

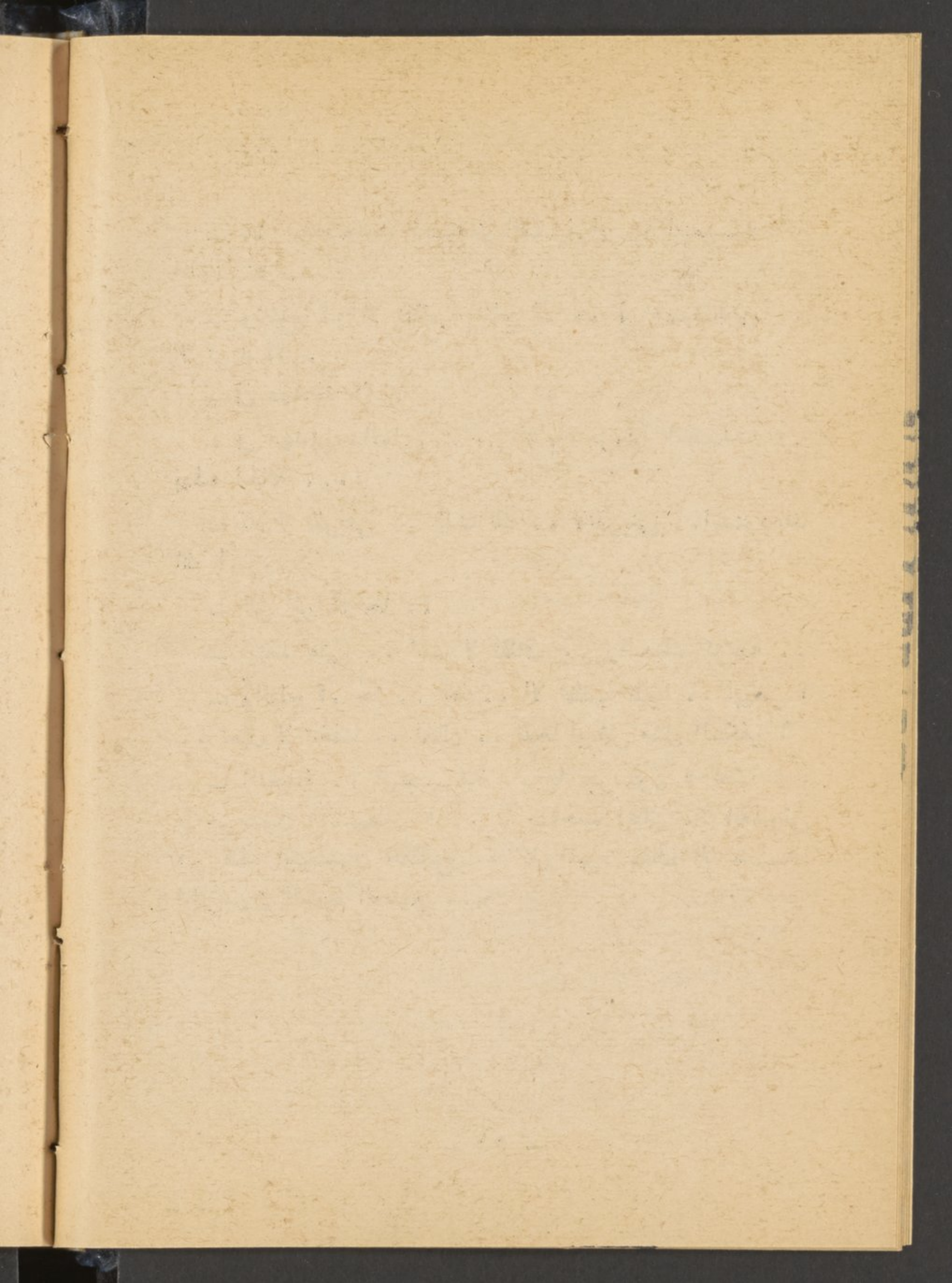
ـ الموت !!.. آه .. لا ، لا ، لا .. أبدا ...

ـ عجبـــا لـــكم ... يا معشر الزبائن ...! كلـكم متشابهون ... تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيهـــا « الزبون » ؟؟ ها .. حا .. حا .. حا ...

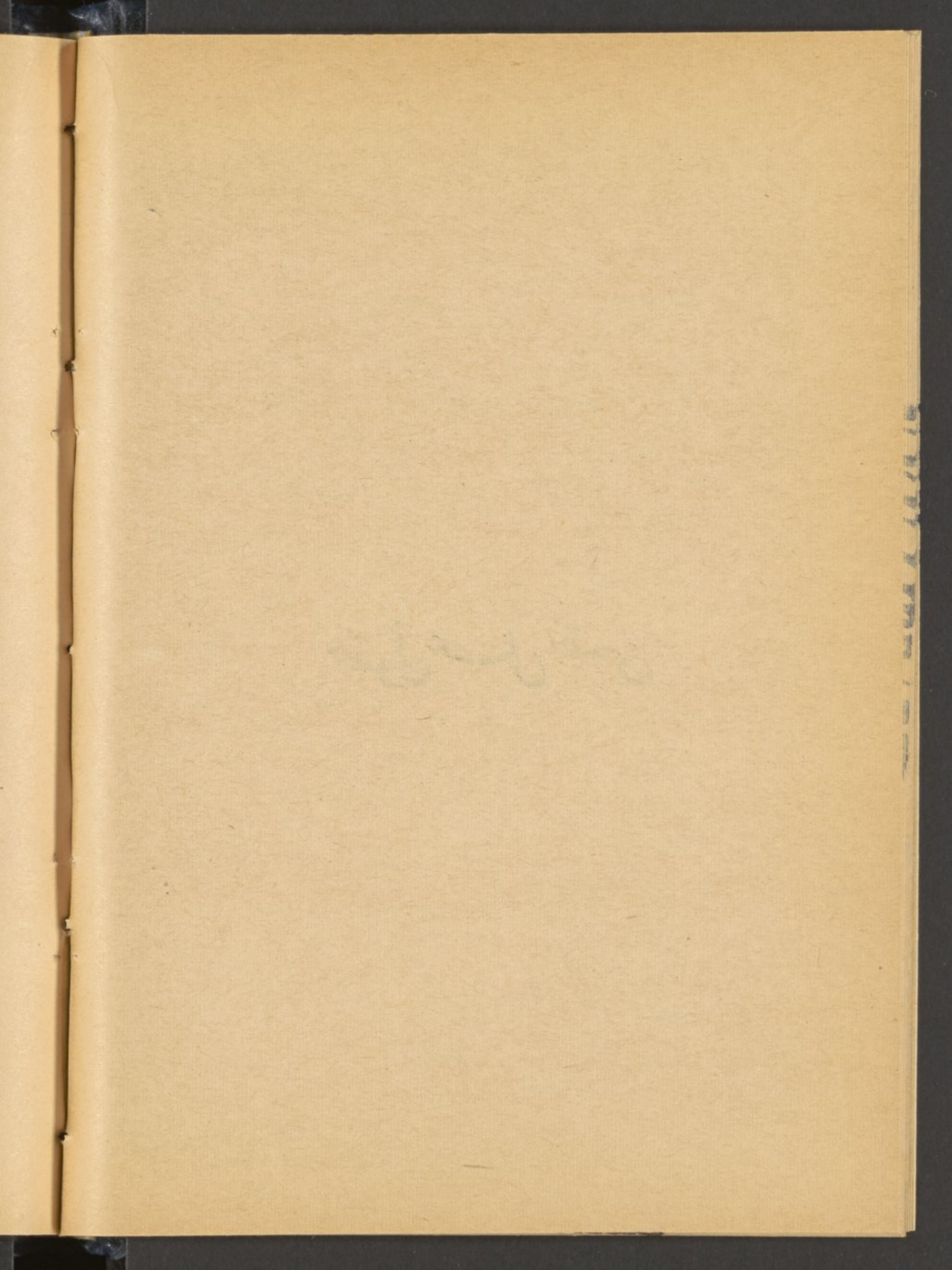
ـ لاتسعل فى وجهى .. أغرب عنى ..

ـ عجبا !. حا .. حا .. سعالى يخيفك .. أتحسبنى مسلولا .. لا .. أخطأت ! هذا من الافيون نعم .. ها .. حا .. حا .. ألا تحب تعاطى الأفيون ؟

ـ بالله . ابتعد . أسنانك الصفراء .. ابتعد .. ابتعد ...
ـ والثلج ؟. ألا تطلب الثلج ؟. هو فى عهدتى .. ألا تريد ؟؟..
ـ فى عهدتك ؟؟..
ـ فى عهدتى دائما ... من يوم (نزولى الخدمة) ، بهذه الحالة ...
ـ كلا لا تقربنى .. قلت لك .. لاتقربنى ..استودعك الله !...
ـ الى أين !؟ حا ..
ـ ابتعد عنى .. أنت لا تطاق .. رائحتك كريهة ..
ـ والثلج ؟. حا .. حا .. الا تطلب ثلجا .. أبيض ؟ .. تعال لا تخف .. تعال .. ثلجا أبيض مثل الكفن !!
ـ النجدة .. النجدة .. يا جرسون « حب » ، يا جرسون « شيطان » .. يا صاحب الحان .. انقذونى من هذا الجرسون الفظيع .. كل شىء يطاق الا هذا الجرسون البارد الفظيع ...



حقوقي على نفسي



فى ذات صباح دخل على حارس بابى وقدم الى خطابا قال ان صاحبه ينتظر الاذن « بالمثول » . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فاذا هو معجب متحمس قد ذهب الاعجاب برأسه فجاء من بلدته وتحمل نفقات السفر كى يظفر بخمس دقائق يرى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . أو ذلك المخلوق العجيب الذى تتساقط من فمه درر الفن والادب ، فتملأ أحواضا حوله يسبح فيها بط وأوز من الفضة والماس وتنبت فيها أزهار من النور والبللور الى آخر هذا الخيال الذى لمحت أثره بين السطور . وكان عندى وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرنى بأحد الموسيقيين فى القرن الماضى . مشى من بلده على قدميه ليرى « ريتشارد فاجنر » فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الاستاذ قائما خلف زجاج نافذته ، وقفل الى بلده غانما باسما

فقلت لصديقى :

ـ لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست « ريتشارد فاجنر » وصاحب الخطاب لن يقنع منى فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة . لا تنس انه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ أيام وشهور ، وليعيش تلك الدقائق

الخمس فى جو عبق بأحلام وأوهام ساورته فى ليال طوال وهو يقرأ ذلك « الهراء » الذى ملأنا به كتبا ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة أمل ستصدم نفس هـذا المسكين اذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب ؟

وترددت قيلا . ولحظ صاحبى ترددى فقال :

ـ ايذن له على كل حال

فأذنت . وليس فى مقدورى أن أفعل غير ذلك . فان رفض المقابلة فى مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فاذا شاب يتقدم فى حياء واضطراب . سلم فى احترام ، وجلس حيث اشرت اليه . ولبث صامتا مطرقا ينتظر منى ان أبدأ الحديث . ولم أجد أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقى الاديب أن الموقف قد فتر وبرد الى حد اخجل الشاب فوق خجله . فافتتح الكلام فى لباقة قائلا للشاب :

ـ أنت قرأت للاستاذ طبعا . . .

فاندفع الشاب يقول فى قوة وتحمس :

ـ كل شىء . كل شىء من « أهل الكهف » الخالدة الى آخر مقال ظهر فى الصحف للاستاذ

فلم أنظر الى الزائر والتفت الى صديقى الاديب وقلت :

ـ ألم تدركها الوفاة بعد « أهل الكهف الخالدة » ؟ . . ان هذه « الخالدة » جديرة أن تموت « حرقا » كما تموت الساحرات الكاذبات

فاحمر وجه الشاب وأراد ان يقول شيئا . لكنى مضيت فى كلامى :

ــ انى ارجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة ان يقراها بعد عشرة اعوام . فان استطاعت ان تحتفظ بسحرها عشرة اعوام فقط حق لك ان تعجب وان تغتبط

فلم يطق الشاب صبرا وصاح بى :

ــ لا تقل ذلك .. لا تقل ذلك .. انت ولا شك لم تقرأ ..

ولم يتم . فقد قاطعه صاحبى الاديب بقهقهة عالية وهو ينظر الى :

ــ اسمعت ؟ انك لم تقرأها .. وانك لتحكم على شىء ليس لك به علم ..

وخجل الفتى الزائر قليلا وتمتم باعتذار خافت وقال :

ــ انى قرأتها كثيرا . لا اذكر كم من المرات . فاذا لم تكن هذه القصة خالدة فما هى القصة الخالدة ؟

ــ انها « خالدة » اذا هبطنا بسعر « الخلود » الى خمسة اعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم التفت اليه واتجهت شطر صديقى الاديب وقلت :

ــ انى لن انسى يوم شاهدت هذه « القصة » تمثل للمرة الاولى . لقد خرجت من اطارها الساحر . هــذا الطبع الانيق والورق الفاخر . فاذا هى شىء هزيل . لا يكاد

يقف على قدميه . واذا سحرها الوهمى الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الازرق والعصب الضئيل . هذه القصة التى لم تثبت « للتمثيل » أتستطيع أن تثبت « للزمن » ؟

فتململ الشاب ونظر الى صاحبى الاديب نظرة المستنجد وقال له :

ــ انى آت اليوم لاسمع هذا الكلام من الاستاذ

فأجابه صاحبى باسما :

ــ ان الاستاذ ادرى بعمله منا

فقاطعه الفتى قائلا :

ــ لا . . . لا . . . أبدا

فنظر اليه صديقى دهشا :

ــ ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

ــ ان أعمال الاستاذ خالدة جميعا

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

ــ أقسم ان الاستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطرا خالدا

فنهض الشاب على قدميه منفعلا وقال بصوت متهدج :

ــ انى لا اسمح لك . . . انى لا اسمح . . .

فأسرع صاحبى الاديب وهمس فى أذنى :

ـ الزم الصمت . انى ألمح الشــر فى عينيــه . وليس بمستبعد أن يهجم عليك ويشبعك ضربا

فابتسمت وقلت للشاب فى هدوء ورفق :

ـ سنتفق على كل حال ذات يوم . وربما فى يوم قريب . وسترى بعينيك أنى أنا الذى كنت على حق

فهدأ الفتى قليلا ثم نظر الى وقال فى نبرة الاسف :

ـ لماذا تريد ان تهدم عملك ؟

ـ لأنه لا يساوى الآن شيئا . لقد قام بمهمته وانتهى الامر ان الفن طويل والعمر قصير . وان هذا الهراء الذى نكتبه ليس الا محطات صغيرة نجتازها أثناء السفر فى طريق الفن ، لا ينبغى أن نقف عندها ولا أن نرجع البصر اليها . ان ما يهمنى الآن هو المحطة التى بلغتها اليوم والمحطة التى أريد أن ابلغها غدا : انى فى كل محطة يخيل الى أنى فى مبدأ الطريق

ـ انه لتواضع

ـ لا . انه ليس كذلك . ينبغى ان تكون معى فى هــذا السفر الطويل حتى تدرك أن « أهل الكهف » شىء قد مات ودفن منذ اعوام

ـ انها لم تمت

ـ الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه

ـ معذرة يا استاذ . انى لن اصدق أن « بريسكا » ميتة

الآن . مهما تقل ومهما تفعل . انى اسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن. ان ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل ... كل هذا حى فى رأسى وقلبى كل هذا مصور فى مخيلتى تصويرا لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . انى كنت قد جئت لأحدثك حديثا طويلا عن « بريسكا » وأستزيد من خبرها ولكن .. أرجو ان تأذن لى الآن فى الانصراف

ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعا وأنا أنظر اليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسى ونظرت الى صاحبى الاديب فاذا هو كذلك مطرق مفكر . وأخيرا التفت الى وقال :

– ما كان ينبغى لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين

– او كان ينبغى لى ان اتركه فى وهمه مخدوعا فى خلود كاذب ؟

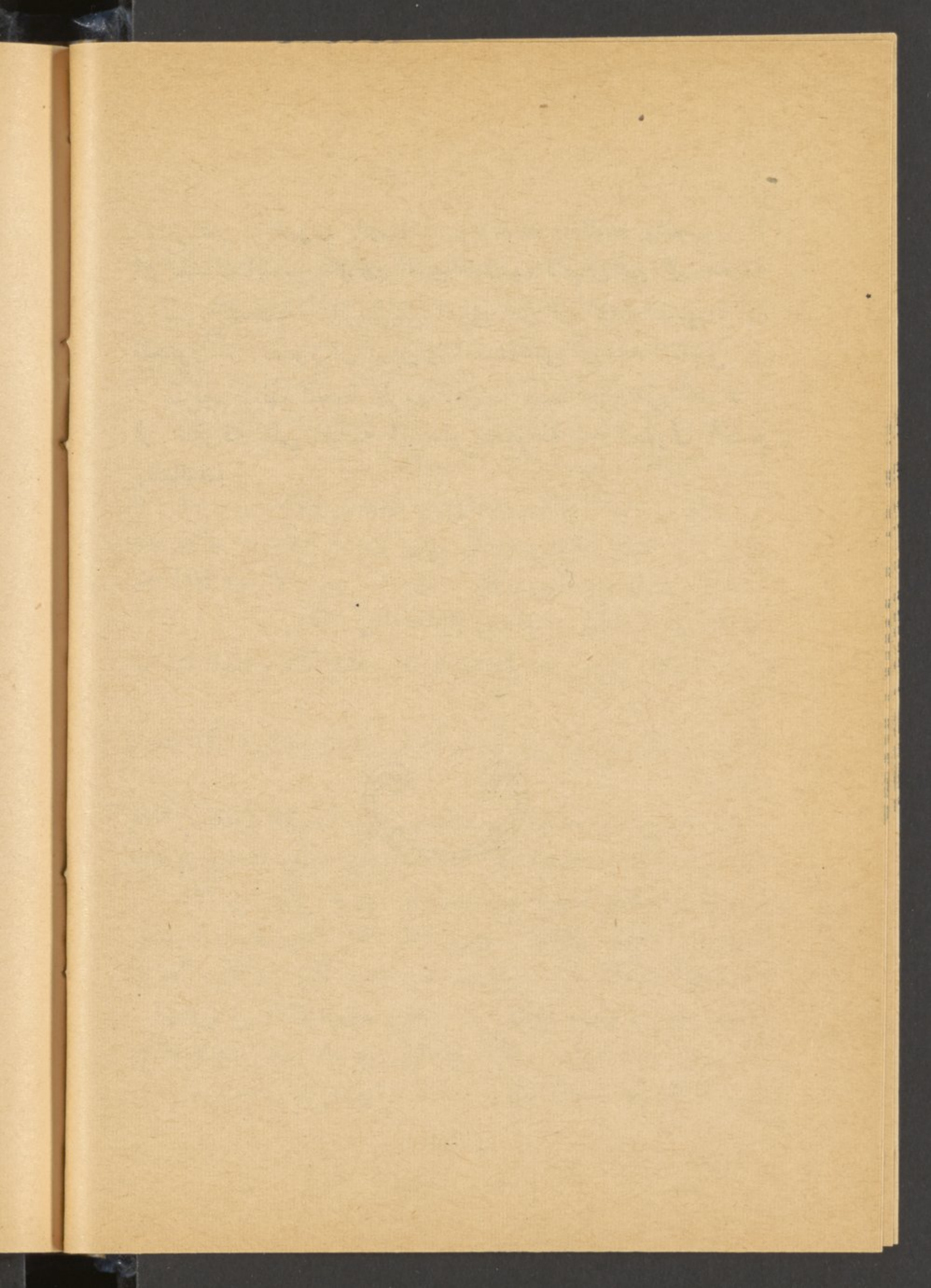
– ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكاما أمام الناس . انك ما دمت قد استطعت ان تخلق للناس أوهاما جميلة وأحلاما حلوة يعيشون فى جوها فان من الاثم ان تخرجهم منها بكلمة . ومع ذلك فكن على ثقة انهم لن يصدقوا كلامك وان حرصهم على هذه الاوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك أنت وعلى حقيقتك التى تزعمها . أترى لو بعث نبى من الانبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذى اتى به قديما ، ماذا يكون شأنه ؟ ايصدقه الناس بسهولة

ام تراهم يرجمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون ؟؟ ان تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لاقوى من كل حقيقة

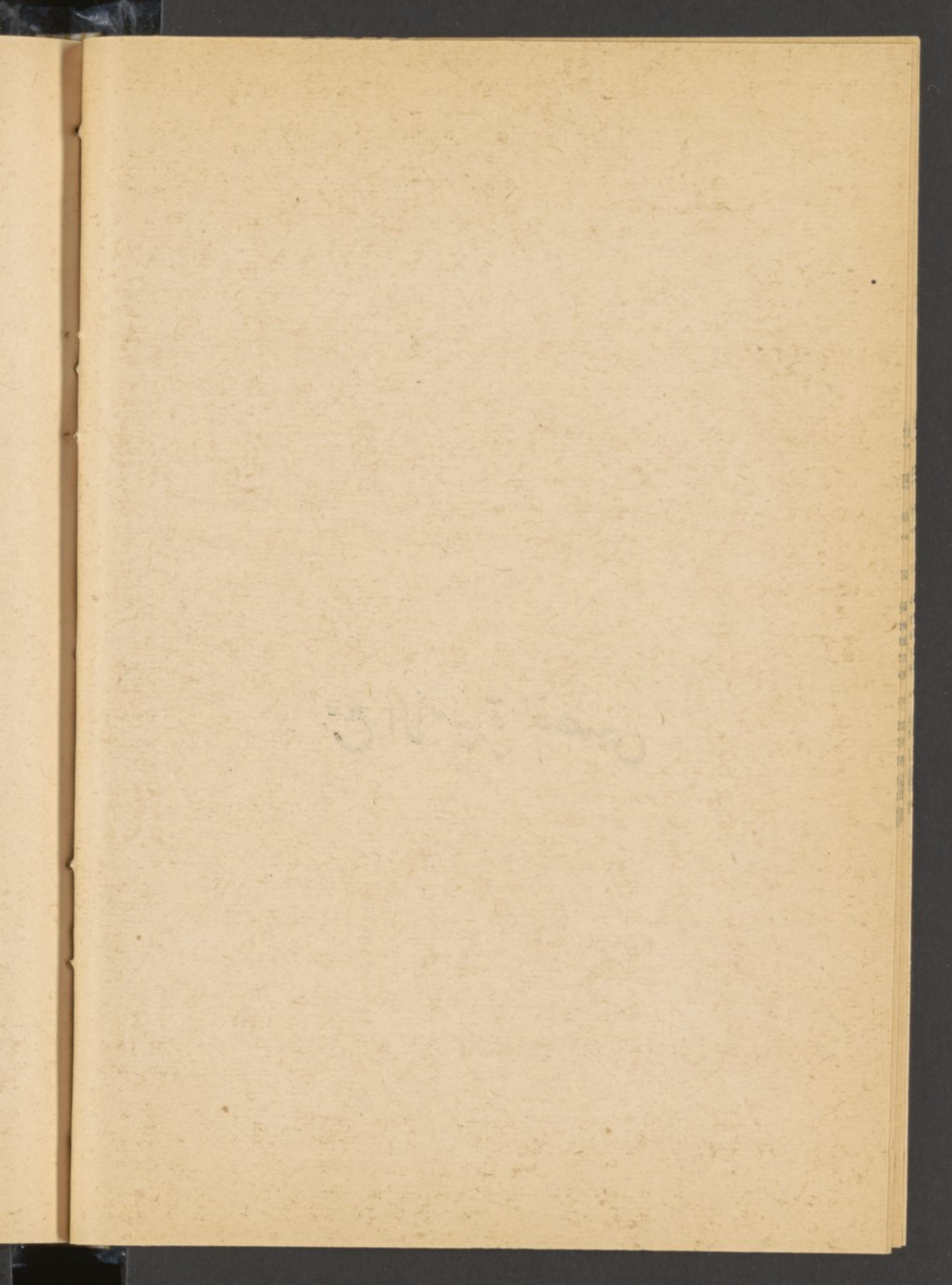
ـ يا للعجب . اليس لى الحق اذن أن أهدم نفسى ؟ انه الجنون ان اتصور ان ليس فى استطاعتى ان أهدم نفسى

ـ نعم وانها لنعمة حرمها المؤلف فيما حرم من أشياء . ان حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !





مع الأميرة الغضبى



الاميرة الغضبى هى «بريسكا» بطلة قصتى «أهل الكهف» وهى مثلى تحب الكتب ، هذه الحسناء النضرة كالزهرة . وكانت تعيش ربيعها الباسم مع مؤدبها « غالياس » ، هذا الشيخ الفانى ذو اللحية البيضاء . الى أن وضع القدر أمامها الفتى الجميل « مشلينيا » . فما كاد يتفتح قلب هذه الزهرة للحب ، حتى رأت « القدر » قد حال بينها وبين حبيبها ، وسطر فى اللوح أمر موته . وقدر « بريسكا » هو « أنا » ولا فخر . انا الذى فى يدى سعادتها وشقاؤها ، أسطرهما بكلمة من قلمى ! لقد تذكرت هذا ، ذات ليلة ، فحدثتنى نفسى ان أهبط الى عالم مخلوقاتى ، فأرى الراضى منهم والساخط ، وأطوف بمشاعرهم نحوى ونحو الاشياء كما كان يفعل آلهة الاساطير !

ذهبت الى الاميرة بريسكا ، فوجدتها تتألق فى حسنها المعهود . ولكنه حسن عليه غيمة حزن . فما ان رأتنى وعرفتنى ، حتى هبت الى صائحة :

ـ انى أبغضك !. . . من أعماق قلبى

ـ أستغفر الله ! لماذا يا سيدتى ؟ ما جنايتى !

ـ وأحتقرك كما احتقر غالياس

ـ لاحظى يا سيدتى قبل كل شىء ان ليست لى لحيـة غالياس !

ـ قل لى أنت قبل كل شىء : ماذا عليك لو انك أبقيت لى مشلينيا ؟... لو ان قلمك تمهل لحظة صغيرة ولم يقصف تلك الحياة قبل ان يحضر غالياس وعاء اللبن ...! ماذا كسبت أنت من موت مشلينيا قبل الاوان ؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية لانقاذ الفتى ... لكنك ضننت بها أيها القاسى الظلوم !

ـ لست قاسيا يا سيدتى ولا ظلوما . ولو كنت أملك امر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لابقيته لك عن طيب خاطر

ـ لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟

ـ لا تحملينى يا سيدتى هذه التبعة !

ـ جميل ان يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل!!

ـ آه !. ما أظلم الانسان ! وما أحوج الخالقين الى الرحمة والرثاء فى هذا الوجود !

ـ نحن الظالمون وهم المظلومون ! شىء بديع !

ـ تلك هى الحقيقة ، يا سيدتى ! انكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل صفة من هذه الصفات فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها . ولو أصغى اله لصوت آدمى لانحل الكون فى طرفة عين ، كما تنحل قصة أهل الكهف لو انى اصغيت الى شخص واحد من اشخاصها ! فأنت تريدين ان أؤخر موت مشلينيا دقيقة ، ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة ان تغير وجه القصة

وتقلب مصير الاشخاص وتلقى عناصر الفوضى فى العمل كله . كلا يا سيدتى . انى لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه . ولم أحب ولم أكره . ولم أظلم ولم أعدل. ان الخالق لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد : « التناسق »

ـ هذا كلام تبرر به قسوتك

ـ انت يا سيدتى لا تعرفين ما مهنة الخالق ! ثقى ان كلمة « قسوة » لا معنى لها فى تلك المهنة

ـ انت كائن لا يمكن ان يفهمنى ولا يمكن ان يفهم الحب

ـ لا أفهمك ، هذا صحيح . أما أنى لا أفهم الحب فهذا غير صحيح

ـ هل أنت تفهم الحب ؟

ـ قليلا

ـ هل أحببت فى حياتك ...؟

ـ ايتها الاميرة ! لا اسمح لك بالكلام فى شئونى الخاصة

ـ معذرة ! انما أردت ان اعرف كيف فهمك للحب ؟

ـ ماذا تريدين ان تعرفى ؟ أحب الخالق وهو روح التناسق ؟ أم حب المخلوق ...؟

ـ بل حب المخلوق ... حب القلب ... الحب ما اريد

ـ ... صدقت . ما دمت أنت خالقا وانا مخلوقتك فان بيننا تلك الهوة ... فأنت لا تنظر الى بعين خاصة . ولا تعرفنى معرفة خاصة . ولا تتصل بى اتصالا مباشرا . انما تنظر الى كعنصر من عناصر الكل المتسق . تنظر الى

بعين ذلك القانون الذى نحكى عنه ، وينبغى ان تكون مخلوقا مثلى وعنصرا أو جزءا مثلى حتى يكون بيننا ذلك الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص . فهبك كذلك وهبنى أحببتك فهل تحبنى ؟

ــ يا لك من ذكية ماهرة !

ــ أجب . اذا أحببتك ...؟

ــ ومشلينيا ؟

ــ دعنا الآن من مشلينيا

ــ اذا أحببتنى ؟ أنا ؟

ــ نعم ، انت

ــ انى أخشى هذا الحب

ــ لماذا ؟

ــ لأنك لن تحبينى

ــ من أين لك العلم ؟

ــ هل رأيتنى ؟ انى لا اشبه مشلينيا فى شىء فليست لى فتوته ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعاه ولا شفتاه ...

ــ ولا قلبه ؟

ــ اتردد قبل ان أجيب ، قد يكون لى قلبه ، لكن ثقى انى لو شقيت فى الحب فانى لا اذهب الى الكهف ولا أموت جوعا . اولا ... ليس عندى كهف أموت فيه . وان وجدنا الكهف ، فلسنا واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوما واحدا ...

ـ اذن ليس لك حتى قلبه !

ـ نعم وا أسفاه !

ـ اذن ما يصنع مثلك لو شقى فى الحب ؟

ـ يذهب الى كهف من كهوف النبيذ فى مونمارتر ويؤلف قصصا تمثيلية

ـ مرحى !. مرحى ..!

ـ لا تغضبى ايتها العزيزة بريسكا

ـ أهذا فهمك للحب ؟

ـ ماذا تريدين ؟ انا لسنا قديسين!

ـ نعم ، لستم سوى خالقين ! آه ... كنت أحسبكم خيرا من هذا !

ـ كذلك قال غالياس يوما فيما أذكر عن القديسين الثلاثة اذ خالطهم وحادثهم . ألا تذكرين ؟

ـ كنت أظنك على الاقل خيرا من غالياس المسكين فهما للحب !!

ـ يشق على ان يخيب ظنك فى يا عزيزتى !

ـ عزيزتك ! كلا . لست أسمح لك ! انك تخاطبنى كما لو كنت تعرفنى من قبل ، او كما لو كنت لى بعلا !!

ـ حقيقة ايتها الاميرة ليس لى هذا الشرف !

ـ تستطيع ان تنصرف يا هذا !.

ـ انصرف الى أين ايتها الاميرة ...؟

ـ أتسألنى ؟ الى حيث كنت ... الى سمائك ...

ـ أين هى هذه السماء ؟ فى قهوة « سيرانو » ؟ أو فى قهوة « جروبى » ؟ ما اكثر اوهامكم ايتها المخلوقات !

ـ نعم ما اكثر أوهامنا ... وتخيلاتنا ... وخيبة آمالنا !

ـ ذلك أنكم تريدون ان تخضعوا كل شىء لخيالكم أنتم

ـ صدقت ! اننا نتمثل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا ...

ـ ثقى ان لو كشف المجهول يوما لاعين البشر لصاحوا كلهم بكلمتك التى لفظتها الساعة : « كنا نحسبه خيرا من هذا ... ! »

ـ ربما ....

ـ ذلك انهم سيرون المجهول شيئا لا علاقة له بعقلهم ، ولا بخيالهم ، ولا بمنطقهم ، ولا بعواطفهم ، ولا ببشريتهم

ـ انا مخلوقات . ماذا تريد من مخلوقات ؟ انا لا نستطيع أن نخرج من انفسنا لنفهم ونرى شيئا غير انفسنا

ـ ومع ذلك فان لهذه المخلوقات كنزا لا يوجد عند الآلهة

ـ القلب

ـ نعم

ـ انى أومن بما تقول ، فهـــا انت ذا خالق من نــوع تافه ... وليس لك القلب الذى لمشلينيا ...!

ـ اعترف انى أقل شأنا من حبيبك

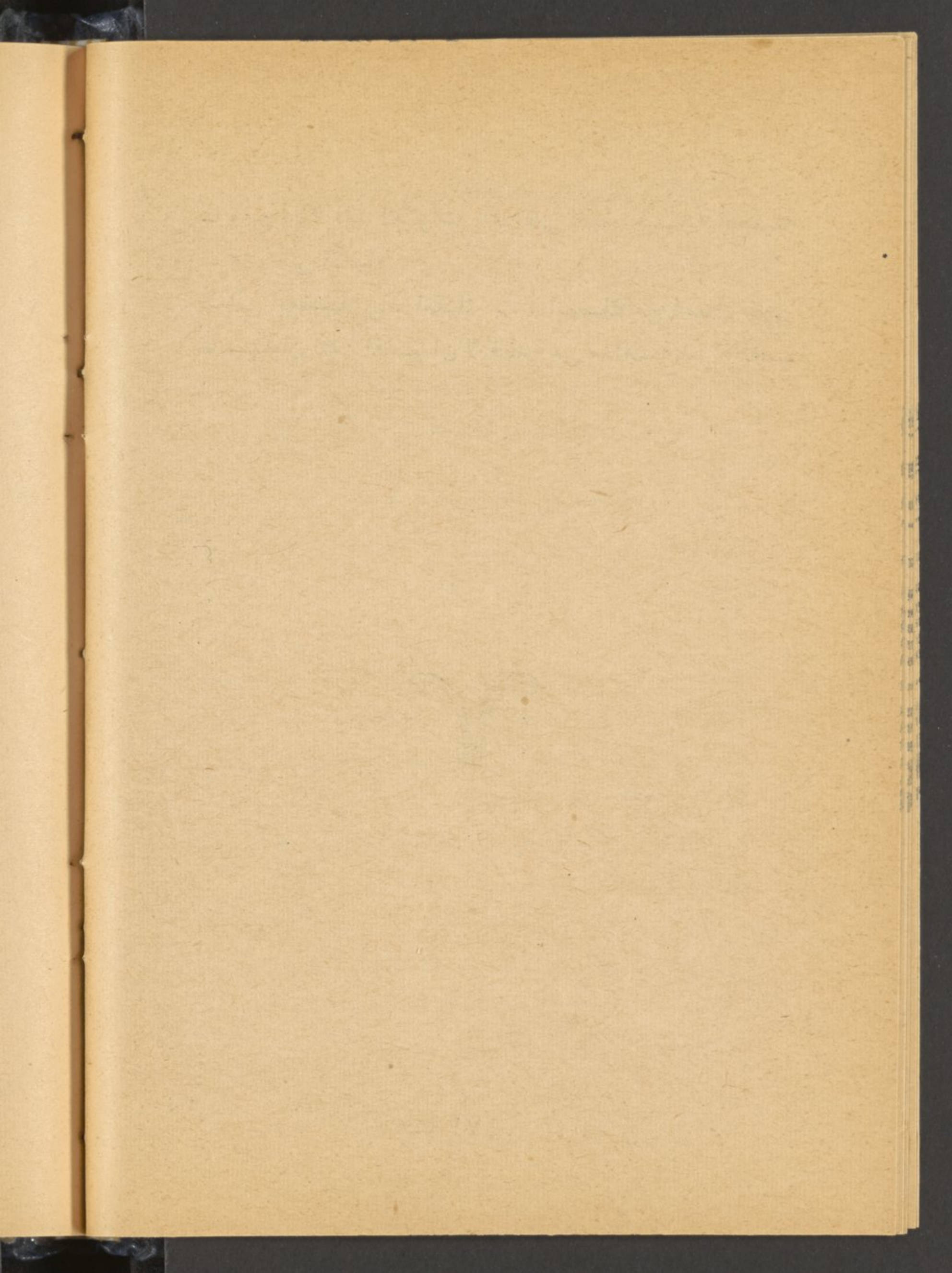
ـ ومع ذلك فقد اجترأت يدك على اطفاء حيـــاته الجميلة

ـ عدنا الى الاتهام

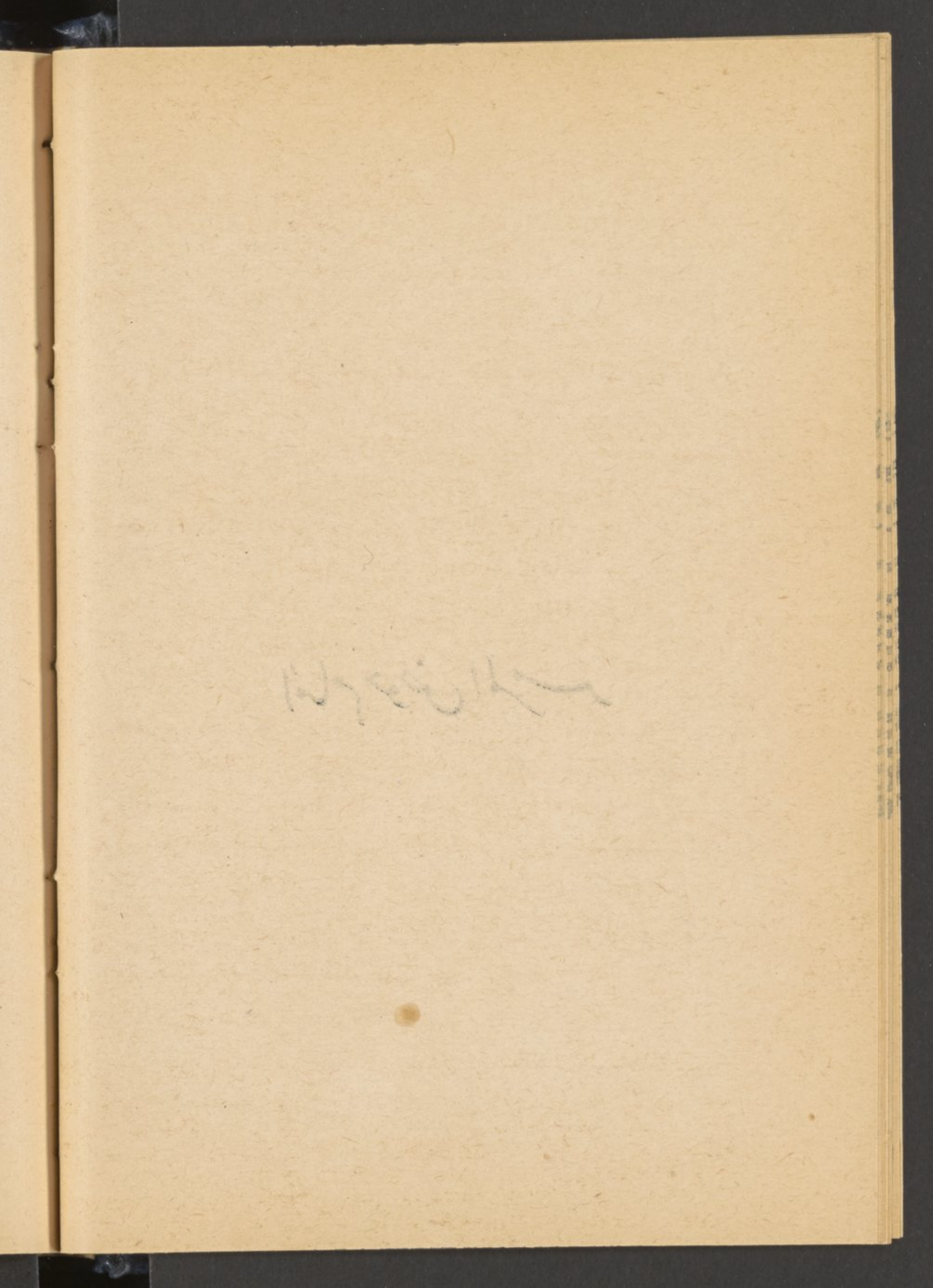
ـ انى ابغضك . . . امقتك . . . ابغضك من أعماق قلبى

ـ سبحان الله ! اقسم ان لا فائدة من مناقشة امرأة تحب





أمام حوض المرمر



فى ليلة من ليالى وحـــدتى الطويلة ، تاقت نفسى الى أنيس . فذكرت الملكة « شهر زاد » . وهى أيضا من مخلوقاتى الجميلات . فقلت : لا يؤنسنى الليلة غيرها . فهبطت الى قصرها . كما هبطت الى الاميرة «بريسكا» من قبل . نعم .. ! وهل يؤنس مثلى الا الملكات والاميرات ! ان عالمى الزاخر باللآلىء والحلى والتيجان هو دائما فى خدمتى ! هذا كل عزاء مثلى من « الخالقين » المتدثرين فى سحب « عزلتهم » الباردة !

ذهبت الى شهرزاد ، فوجدتها متكئة على الوســـائد تنظر باسمة فى حوض من المرمر ، قد انعكست أشـعة عينيها الذهبيتين على مائه ، فاتخذت صفحته الهـادئة لونا غريبا .. وجلس بين يديها الوزير الجميل « قمر » فى اطراقه وحيائه ونفسه الزاخرة بألوان العواطف الجميلة المكتومة . وكان بينهما هذا الحديث :

شهر زاد ـ (فى مكر) أراك يا قمر تسرف فى اطرائى وتبخس قدر صديقك شهريار

الوزير ـ لم أبخس قدره

شهرزاد ـ (فى مكر) يخيل الى أنك نسيت ما بينكما من ود عجيب

الوزير ـ (فى حدة) لم أنس شيئا

شهرزاد ـ (فى خبث) بلى !

الوزير ـ (فى حدة عمياء) انى لم أنس شيئا . انما أبين‌لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة أخرى . انى لست أخدع . لست أخدع . لست أخدع

شهرزاد ـ (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير ـ (يثوب الى رشده) مولاتى مغفرة . انى ..

شهرزاد ـ انك أحيانا لا تملك نفسك

الوزير ـ انى .. أردت أن أقول انك غيرته ، وانه انقلب انسانا جديدا منذ عرفك

شهرزاد ـ انه لم يعرفنى

(وهنا يسمعان طرقا شديدا فقد طرقت أنا عليهما الباب)

الوزير ـ (يرهف السمع) هذا هو

شهرزاد ـ ان شهريار يحمل دائما مفتاحه ولا يدخل القصر الا من سردابه

الوزير ـ من الطارق اذن ؟

شهرزاد ـ اذهب وجئنى بالخبر

(الوزير يخرج مسرعا)

شهرزاد ـ (كالمخاطبة لنفسها) مسكين انت ياقمر !

(الوزير يعود على عجل)

قمر ــ مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجيب الزى ، يقول أنه المؤلف ، ويلتمس المثول بين يديك

شهرزاد ــ (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف ؟

قمر ــ لم أفهم مراده . انما هذا ماقاله لى

شهرزاد ــ أدخله لنتبين أمره

قمر ــ أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

شهرزاد ــ وماذا يضير ؟ انك معى

قمر ــ نعم سألبث معك

شهرزاد ــ (كالمخاطبة لنفسها) المؤلف ؟أتراه أحد السحرة قد أرسل فى طلبه شهريار ؟

وقادنى قمر الى شهرزاد ، فدخلت أتأمل المكان وأنظر الى عجائب القصر . وراتنى شهرزاد وتأملت زيى قليلا . ولكن حسنها وهيبتها لهما عين السحر فى نفوس الخالقين والمخلوقين فوقفت أقول مأخوذا :

ــ مولاتى ...

ــ ماذا بك ؟

ــ أأنا بين يدى شهرزاد ؟

فهمس فى أذنى الوزير الجميل :

ــ نعم انت فى حضرة الملكة العظيمة

فقلت كالمخاطب لنفسى :

ــ نعم ، لايمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها

ورأت الملكة الجميلة مابى فقالت لى :

ــ بم تهمس كمن به مس ؟

ــ مغفرة أيتها الملكة ، انى ...

ــ لماذا تنظر الى هكذا ؟

ــ هذا الجمال ...

فالتفتت شهرزاد الى وزيرها قائلة :

ــ أرأيت ياقمر ؟ انك قد جئتنى آخر الليل بمعجب مفتون

فنظر الى قمر قائلا فى شىء من الحدة :

ــ ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

فقلت همسا :

ــ لست أدرى ..

ثم عدت الى تأمل شهرزاد . فقالت :

ــ أرجو منك أن لاتطيل النظر الى هكذا

فقلت :

ــ مولاتى ! لا أستطيع

فقالت وهى تبحث بعينيها الفاتنتين :

ــ أين الجلاد ؟

فقلت :

ــ نعم ، خير لك أن تأمرى بى فتطاح رأسى من أن تطلبى الى أن لا أعجب بك

ــ اترانى حقا جميلة ؟

- نعم
- ان لى جسدا جميلا ! أليس لى جسد جميل ؟
- ليس الجسد وحده
- اقترب
- كلا
- لماذا ؟
فأشرت الى حوض المرمر :
- هذا الحوض ...
- أيخيفك هذا الحوض ؟
- أخشى أن تزل قدمى فأسقط وأنا لا أحسن السباحة
- انه قليل الغور
- لاشىء عندك قليل الغور
فتفرست شهرزاد فى وجهى وقالت :
- عجبا ! انك تتكلم كما يتكلم شهريار : من أنت ؟
- خادمك توفيق الحكيم
- أتعنى أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة ؟
- لاهذا ولاذاك ، ولكنه اسم من الاسماء
- وما صناعتك ؟
- أؤلف القصص
- مثلى ؟

ـ لم أبلغ شأوك ، وليس لى ذكاؤك ولا خيالك

ـ انك تسرف فى اطرائى وتبخس قدر نفسك

ـ قدر نفسى ؟ وما أدراك به ؟ وهل عرفت لى قصصا على الاقل أيتها الملكة ؟

ـ كلا . ماذا صنعت أنت من القصص ؟

ـ قصة «شهرزاد»

فظهر العجب على وجه الملكة :

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت

ـ متى صنعتها ؟

ـ ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه

ـ أصنعتها فى الماضى ؟

ـ بل فى المستقبل

ـ فهمت . هذا الزى العجيب ..

ـ نعم . انى أهبط اليك الساعة من المستقبل الذىأعيش فيه لالقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين ، كما يهبط الطائر من الشمال الى الجنوب فى غابة متسعة الارجاء

ـ يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهريار

ـ أترين هذا ؟

ـ لكنك أهدأ نفسا منه

ـ نعم ، الآن

ونظرت شهرزاد الى مليا :

ـ انى أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

ـ لقد جمع بيننا دائما

ـ أين ؟

فأشرت الى قلبى وقلت :

ـ هنا

فقالت فى عجب وهى تشير الى قلبى :

ـ هنا ؟

ـ نعم . ومن هنا خرجت أنت الى الوجود فما أنت الا صنع النار والنور الكائنين هنا

وأشرت مرة أخرى الى قلبى . فقالت باسمة :

ـ هذا جميل

ـ أرأيت من أى مادة أنت مصنوعة يامخلوقتى العزيزة !

وتململ قمر ، فقال مشيرا الى فى عنف :

ـ من هذا الرجل ؟

فقلت فى الحال :

ـ صه أيها الوزير . فكر فى شأنك أنت ، ودعنى فيما أنا فيه . فما جئت الليلة الا من أجل شهرزاد

فقالت شهرزاد فى ابتسامة عذبة :

ـ جئت من أجلى ؟

ـ نعم

ـ وماذا تريد منى ؟
ـ أريد أن أعيش الى جانبك
وهنا ثار غضب قمر فصاح بى :
ـ أيها الرجل ! من انت أيها الرجل ؟
فقلت له هادئا :
ـ أنا كائن أشقى منك حالا
فقالت شهرزاد :
ـ لماذا ؟
ـ لانى أشعر ببرد الوحدة يكتنفنى فى تلك السماء ذات السحب
فقالت باسمة :
ـ ويل للخالقين !
ـ صدقت ، أجل ياشهرزاد لولم يعش الخالق فى مخلوقاته لقتله برد الوحدة
ـ تريد اذن أن تهبط الى الارض
ـ لقد قلتها انت مرة ياشهرزاد : لاشىء غير الارض !
ـ أين شهريار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الارض يريد السماء !
ـ لاتخشى عليه من بأس . سوف يعود اليك
ـ متى ؟
ـ يوم يعلم أن السماء فى الارض

ـ ياهذا .. أريد منك شيئا ..

ـ ماذا ؟

ـ أمنحك قبلة .!

ـ تمنحينني قبلة ؟

ـ نعم

ـ وهبتها قمرا

فنظر قمر الى شهرزاد مستنكرا قولى وصاح :

ـ مولاتى !

فقلت له :

ـ خذها أيها الابله . من ذا الذى يرفض قبـــلة من شهرزاد ؟

فلم يحتمل قمر الرقيق أكثر من ذلك فخرج سريعا فقلت :

ـ هرب الاحمق

وعندئذ نظرت الى شهرزاد مليا وقالت :

ـ عرفتك أخيرا

ـ عرفتنى ؟ من أنا ؟

ـ أأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

ـ من هو ؟

ـ شهريار !

فقلت مضطربا :

ـ لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغى أن يوضع ولا ينبغى أن يلقى على

فقالت :

ـ اذن ارتفع . فما أنت الا شبح من الاشباح

ـ شبح من ؟

ـ شبح شهريار !

ـ لاتقولى هذا . انما هو الشبح وأنا الحقيقة

فقالت :

ـ أمام الابد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك ، وما انت الا خيال سوف تتبعه صاغرا على مر الايام وان ذكر اسمك على الدهر فانما يذكر خلف اسمه . أنك تزعم الآن أنك صانعنا وخالقنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وانما نحن فى الحقيقة صانعوك وخالقوك فى الغد أمام الخلود

ـ ويل لى

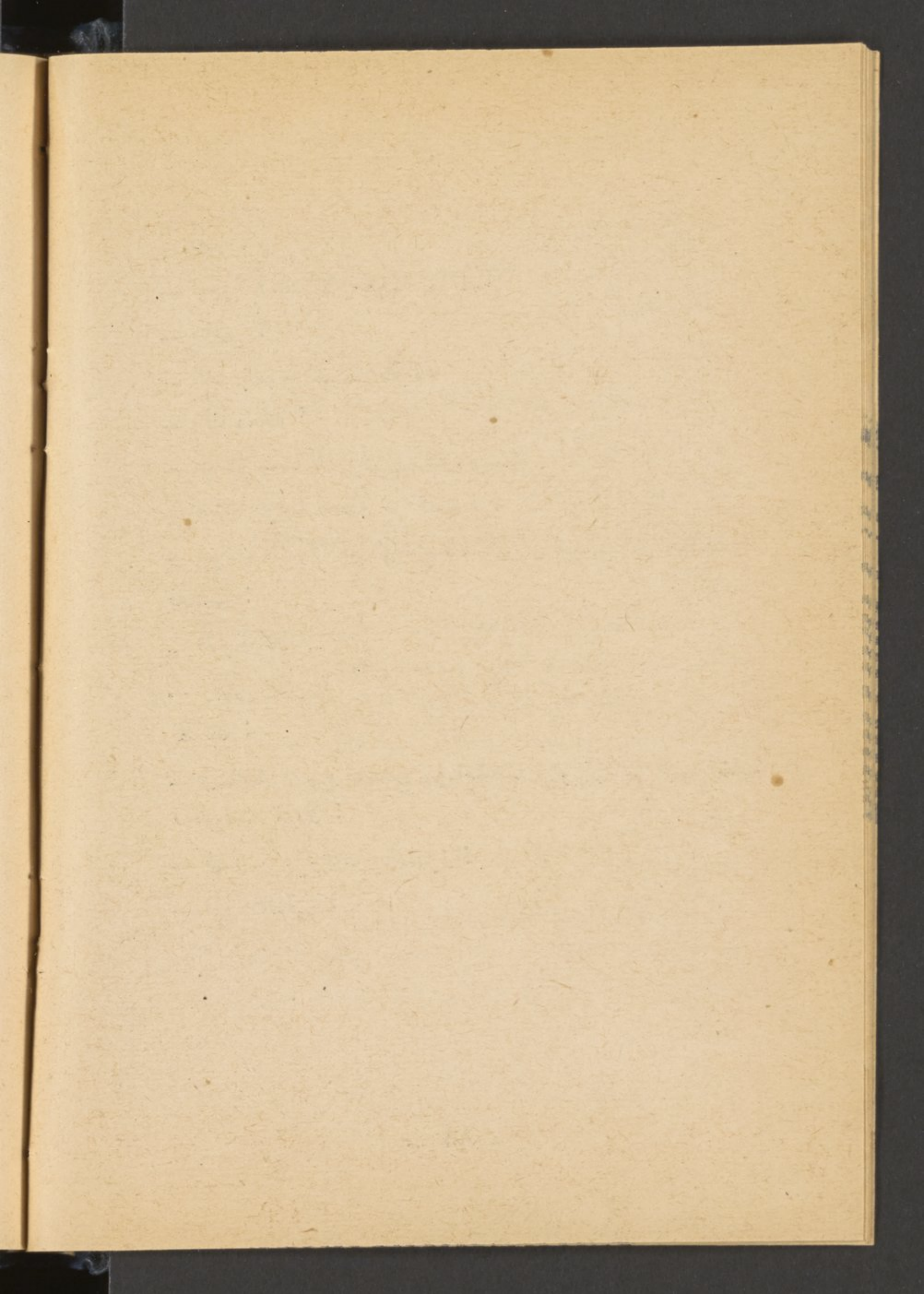
ـ ماذا بك ؟

ـ أأنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى ينخر فى نفسى الشك . فاذا هبطت بينكم ألتمس اليقين ، علمت أنى شبح لاحقيقة ، وأنى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور

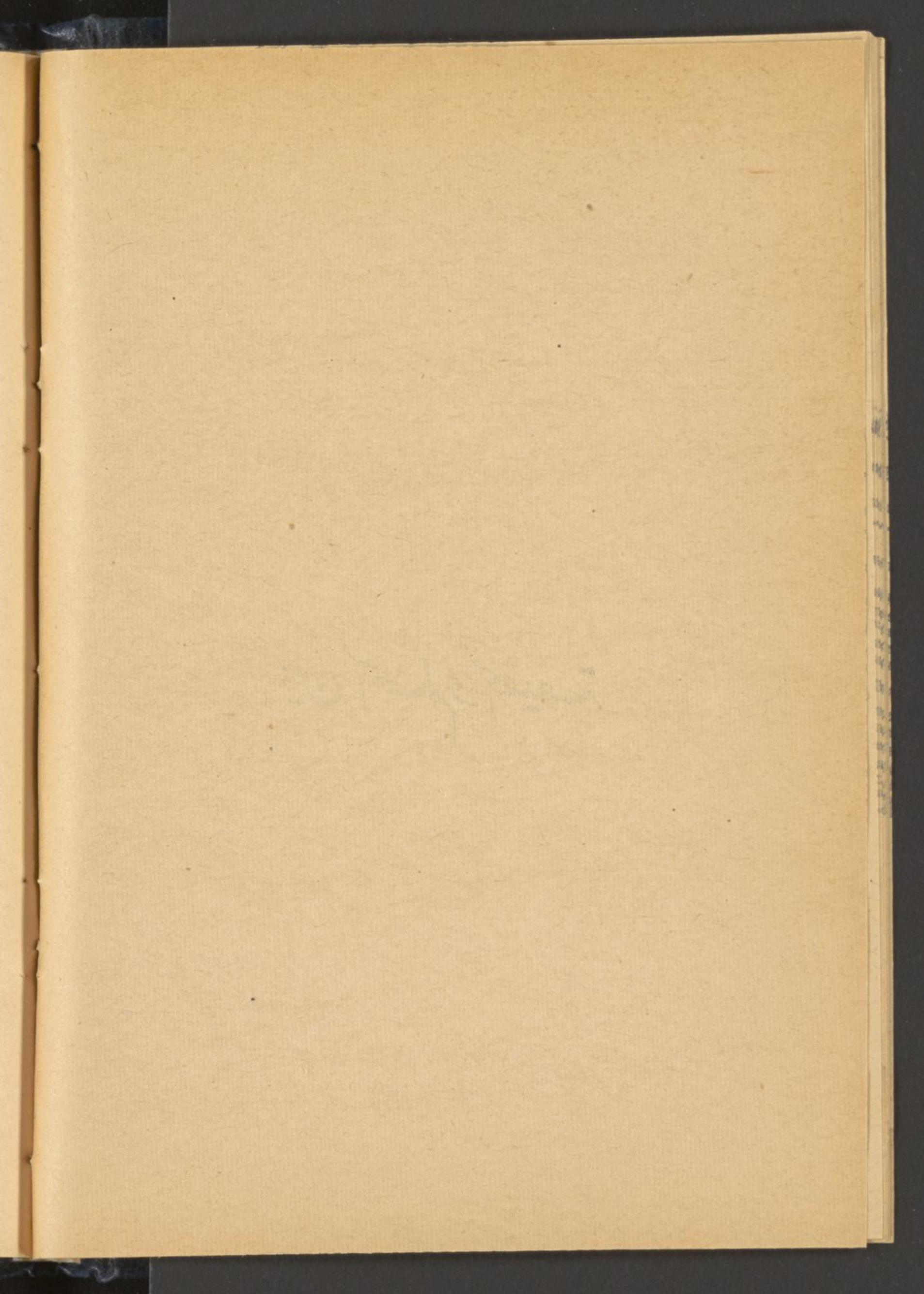
فقالت :

ـ كل شىء يصنع كل شىء ...

ـ نعم .
ـ ليس هناك الا حقيقة واحدة
ـ ماهى ؟
ـ أننا جميعا لسنا حقيقة
ـ وأنا معكم ؟
ـ وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا
فتأملت قولها لحظة ثم قلت :
ـ صدقت ! ولا أمل لى مع ذلك فى أن أعيش الى جانبك ؟؟
فقالت :
ـ اليوم كلا
ـ ومتى اذن ؟
فقالت :
ـ فى الغد ، يوم تصبح من مادتنا ، لو أن لنا اليوم مادة
فأطرقت قليلا :
ـ فهمت . وداعا ياشهرزاد
ـ الى الملتقى !



بين الحلم والحقيقة



« أحدهما شبح الآخر »

«هو» : صانع تماثيل ، قد جلس امام تمثـال صنعه لاميرة فرعونية

«هى» : زوجته ، جميلة تشبه التمثال

هو

(يرنو الى التمثال)

نفريت ! ما أجملك ! عيناك فى صمتهما العجيب تابوتان لامعان ، يرقد فى أحدهما الحب ، وفى الآخر ... الحب

هى

(لزوجها الفنان)

الن تكف عن مخاطبة هذا التمثال الصخرى ؟

هو

نفريت ليست من الصخر

هى

انك جننت

هو

انى أحب

هى

تحب تمثالا من الصخر ؟

هو

انها ليست من الصخر ، أللصخر حرارة وانفاس ؟

هى

تلك حرارتك وانفاسك

هو

نفريت ! . المس جسمك الحار فيرتجف جسمى الملتهب

هى

انما جسمك يلتهب من الحمى

هو

ما اجملك يا نفريت ! رأسك ذو الشعر الاسود شمس من الآبنوس . رأسك اللامع كرة ساحرة تبهر بصرى وتثقل رأسى . اننى اشعر الآن بدوار

هى

(ترده عن التمثال)

لا تطل النظر الى هذا الصخر اللامع

هو

دعينى يا امرأة !

هى

كلا . لن أدعك هذه المرة . لقد ضقت ذرعا بهذا التمثال ... لا تحدق فيه ببصرك ... انك تحلم .. اقسم انك فى حلم

هو

دعينى ياامرأة !

هى

اصغ الى لحظة ، أتوسل اليك ان تصغى الى

هو

نفريت . ما اجملك يا نفريت ! . صـــــوتك الرقيق فراش جميل الالوان يطير فى لطف ورقة من جوف زنبقة حمراء !

هى

وصوتى أنا ، الا تسمعه ؟

هو

نفريت !

هى

انما أنا التى تحبك ... الا تسمع صوتى أنا ؟ ألم يعد رقيقا كأجنحة فراش جميل الالوان ، وشعرى ... ألم يعد شمسا من الآبنوس ؟ لم تنادى نفريت بما كنت تنادينى به من قبل ؟

هو

نفريت ! لن يصنع مثلك بغير ان تفنى عبقرية ألف اله . ولن يخلق نظيرك اله دون ان يجن !

هى

أيها المجنون ... لا سواى فى الوجود ! .. أنظر الى أنا ... لم تنعت نفريت بما كنت تنعتنى به من صفات ؟

هو

بى ظمأ اليك يا نفريت !

هى

وأنا ؟ .. اما بك ظمأ الى ؟ .. لماذا لا تأخذ رأسى بين يديك كما كنت تفعل ، لترتشف من فمى عصير اللآلىء ؟

هو

قبلات نفريت ... عسل من نار ، بل خمر من عصير اللآلىء فى كأس من نار ...

هى

ويحك ! تلك صفاتى ... اسمائى التى كنت تطلقها على أنا وحدى ... أنا جمالك الوحيد ، انا عندك منبع الحسن الخالد

هو

من أنت ؟

هى

من أنا ؟ ! الا تعرفنى ؟ انى ابغضك

هو

انها لا تبغضنى . انها تحبنى ، انها لا تحب «أسرتسن» ... آه ... الغيرة

هى

الغيرة ؟!

هو

جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب ...

هى (تضحك)

أنا ؟ اغار من تمثال ؟ اغار من تمثال ؟ أنا أغار من جمال كاذب !

هو

أنا الذى يغار من زوجها «أسرتسن» . انه الى جانبها أبدا ... فوق عرش واحد ... تحوطهما هالة من انفاس الآلهة ... وتحفهما العبيد بمراوح النخيل

هى

انت فى حلم . اقسم انك فى حلم

هو

بل فى يقظة هنيئة ... انها معى أبدا ، انها ترنو الى بعينين من ذهب

هى

أيها النائم ... وعيناى أنا ... الا تراهما ؟

هو

من انت ؟

هى

انظر الى عينى

هو

عيناك من نحاس

هى

انك لم تبصرهما ، انت لا تريد ان تبصرهما ، آه . لم صنع هذا التمثال ؟

هو

نفريت ... راسك اللامع بين يدى كوكب اسود بين يدى اله ، كوكب لانهار له

هى

ورأسى انا ايها المجنون . الاتراه ؟

هو

من أنت ؟

هى

انظر الى شعرى الاسود اللامع

هو

راسك ليل له نهار

هى

انى امقتك مقتا شديدا . وابغضك أكثر مما تبغضنى ، وأمقت من تحب ، وابغض هذا التمثال

هو

نفريت ! انت لى وحدى ؛ انت كوكبى ، فلنسبح سويا فى بحار الفضاء تاركين خلفنا اسرتسن ... ولنبحث عن جزيرة الهناء الدائم ... تلك الجزيرة التى خلقتها الآلهة لانفسها ثم فقدتها ... هلمى بنا نبحث عنها معا فربما كان حظنا أوفر من حظ الآلهة

هى

اقسم انك فى حلم ، لكنى سأوقظك

هو

نفريت ... جزيرة الهناء الدائم ليست فى محيطات الفضاء كما تزعم الآلهـــة ... عبثا تبحث عنها الآلهة فى محيطات الاثير ... جزيرة الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيرى .. ميلى بأذنك نحوى كى أهمس لك بمكانها اتدرين أين جزيرة الهناء الدائم ؟ هى ليست فى محيطات الفضاء ، هى فى محيط ... عينيك

هى

محيط عينيها ... سأجعلك تفيق من تأثير عينيها . انظر ! ماذا ترى بيدى ؟

(تأتى بمطرقة من الحديد)

هو

لا تقربى نفريت

هى (تحطم رأس التمثال)

انظر هذا الكوكب الاسود تمحوه المطرقة !

هو

آه ...

هى

وهذا الجسد الجميل الحـــار يتفتت قطعا باردة تحت ضربات المطرقة ..

هو

آه ..

هى

والآن .. انهض واجمع اجزاء نفريت الخالدة ! !

هو (يفيق)

أين انا ؟ .. أحس دوارا ، أين الرأس اللامع ؟

هى

ها هى ذى تحت قدمى نفريت ورأســها اللامع ... وعيناها اللامعتان اللتان انامتاك طويـلا .. الآن انت لى وحدى

هو

أين أنا واين كنت ؟

هى

لست أدرى أين كنت !. انما انت الآن هنا معى وقـد عدت الى ..

هو (ينظر اليها مليا)

أيتها العزيزة ، أنا هنا معك ! اجلسى الى جانبى

هى

لماذا تطيل الى النظر هكذا !؟

هو

كأن راسك شمس سوداء ..

هى

بل ليل له نهار ..

هو

كوكب من الآبنــــوس ... وعيناك ، كأن عينيك من ذهب ..

هى

عيناى من نحاس ..

هو

عيناك بحيرتان صافيتان يسبح فى احداهما الحب وفى الاخرى ... الحب !

هى

ألى هذا القول أم لنفريت ؟

هو

من نفريت ؟

هى

الا تعرفها ؟

هو

لا اعرف سواك يا عزيزتى فى الوجود . ما اجملك ! كم أود أن أتناول رأسك الآبنوسى بين يدى وأرشف من فمك رحيقا فى لون الورد . بل خمرا من عصير اللآلىء فى كأس من ورد

هى

أرجو منك الا تخاطبنى بما كنت تخاطب به نفريت . .

هو

من نفريت ؟

هى

ألم ترها ؟

هو

كلا . . . لم أر غيرك . انى أريد ان أبحث فى محيط عينيك عن الهناء الدائم

هى

دعنى ! انك ترى فى الآن ماكنت ترى فى الاخرى

هو

من هى الاخرى ؟ ليس فى الحياة غيرك انت ، لان الطبيعة لن تخلق سواك . وأى اله يصنع مثيلك دون أن يتهم بالتزييف !

هى

آه ! هذا ما قلته لها أيضا ! ..

هو

لمن ؟

هى

أترى ...

هو

ماذا ؟

هى

ترى أكنت أنا هى ؟ أم شبحها ؟

هو

من هى ؟

هى

أشربت شيئا ؟

هو

كلا ..

هى

أتذكر أسطورة « السكير وزوجته ؟ » لقد كان يسرق حلى زوجته كى يسبغه على خليلته ، ثم يسرق حلى خليلته كى يخلعه على زوجته

هو

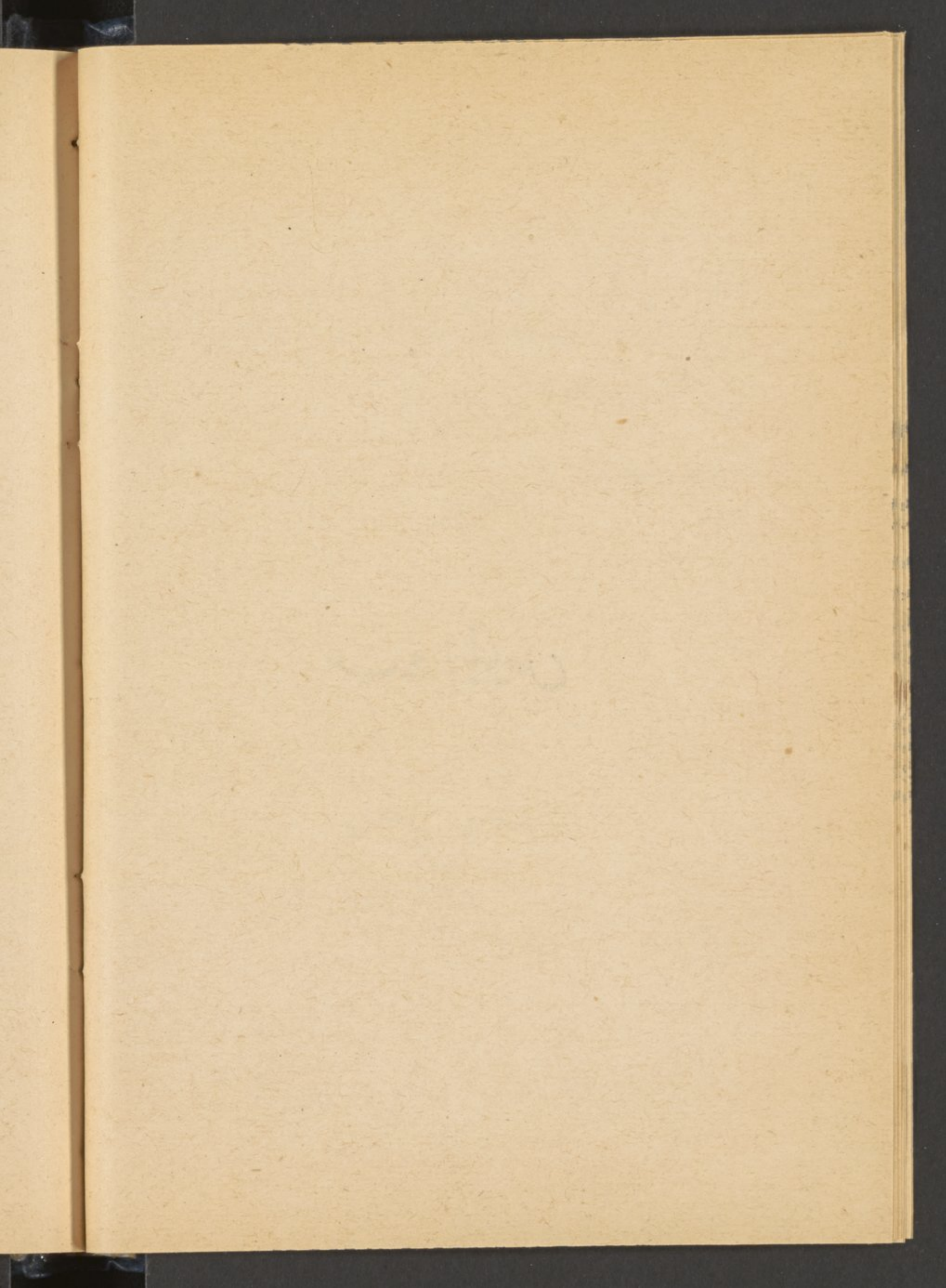
ومن خليلته ؟

هى

زوجته ..



عدو إبليس



« عزرائيل » وقد انصرف عن دار النبى « محمد » بعد وفاته . يرى « ابليس » مقبلا فرحا مبتهجا

ابليس ـ هل قبضت روحه ؟

عزرائيل ـ وما شأنك وهذا ، أخزاك الله ؟

ابليس ـ نعم ، نعم ، لقد مات . أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكى وتصيح : « أبتاه ، أبتاه . أجاب ربا دعاه ، ياابتاه ! جنة الفردوس مأواه ! ياابتاه . الى جبريل ننعاه . »

عزرائيل ـ وما يعنيك من هذا الامر ؟

ابليس ـ أو ليس هذا أيضا صوت زوجته عائشة فى بكاء وشهيق : « واحر قلباه ! وامصيبتاه ! الآن قد انقطع عنا خبر السماء ! »

عزرائيل ـ أغرب عن هذا المكان !

ابليس ـ ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن يبكين : « واثكلاه ! واثكلاه ! »

عزرائيل ـ أغرب عن هذا المكان !

ابليس ـ ما أجمل هذا النهار ... ان نفسى لتكادتتفجر شعرا وغناء . اصغ الى هذه الاغنية :

ذهب عدوى الى الفناء

اليوم عيـــدى فالى الغنـــاء

عزرائيل ـ صه قبحك الله وقبح صوتك !

ابليس ـ صوتى منذ اليوم يستطيع ان ينطلق حرا فى أرجاء الارض . صوتى منذ الآن يستطيع أن ينفذ الى تلك القلوب التى كانت تميل عنى لتتلقى اخبار السماء . نعم الآن قد انقطع عن الارض خبر السماء . لقد عاد الى ملك الارض من جديد ... وافرحتاه ! وافرحتاه !

عزرائيل ـ خسئت ! ان نور السماء قد نفذ الى قلوب النـــاس ، فهيهات بعد اليوم ان يصغوا الى صوتك !

ابليس ـ انك لا تعـــرف الناس مثلما اعرفهم . انى أعرف كيف امر بأناملى مرا رقيقا على أوتار قلوبهم ، فيذهلون ، واغنى بصوتى هذا غناء شجيا فيطربون ... انك لا تعرف ما هى الاغانى التى أغنيها لهم . انى أغنيهم أغانى الارض لا أغانى السماء ! ان السماء تنير قلوبهم حقيقة ... ولكن لاجل قريب . لا تنس انهم خلقوا من طين الارض . لاشىء يهز كيانهم غير أغانى الارض !

عزرائيل ـ انهـــم من الارض ولكن أعينهم تتطلع الى السماء

ابليس ـ نعم ، عند ما يشير لهم اليها النبى بأصبعه ، فاذا ولى ... عادت رؤوسهم تنخفض نحو الارض . انهم كالسنبلة التى لا يرفعها غير الاصبع ، فاذا تركت سقطت

عزرائيل (كالمخاطب لنفسه) ـ عجبا ! ولماذا اذن رضى

الله ان يقبض نبيه ؟! ان لله حكمة ، أجل ، أجل . أنسيت أيها الخاسر ان النبى انما يأتى للتبليغ ويمضى ؟ انه جاء بالدين . انه يذهب ولكن الدين باق . الدين هو الاصبع الدائمة التى لا تنفك تقيم المعوج . لا تفرح اذن كثيرابموت النبى . ما مات غير الجسد الزائل . أما المبادىء والتعاليم فهى قائمة فى وجه ريحك العاتية دائما ... ما الرسول فى الحقيقة غير الرسالة ... والرسالة لا تموت

ابليس ـ نعم .. نعم

عزرائيل ـ ما بالك وجمت ! ان على وجهك الآن لغبرة تزيده قبحا على قبحه ...

ابليس ـ الرسالة والدين والتعاليم ... هذا صحيح ... ولكن . تلك اشياء لم تخفنى قط ... فقداستطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها ... ان المسيح قد بشر بالمثل الاعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء . وذهب وقد ترك فى الارض قديسين وخلفاء ساروا على سنته فى نبذ متع الارض والانقطاع مترهبين فى الصوامع والبيع والصحارى ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله وحده ، ناسين أو متناسين هذه الارض التى من عناصرها صنعت أجسامهم ... هنا تراءيت لهم ولمن تبعهم فى صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه ، وخاطبت اجسامهم بالمنطق الذى تفهمه ، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التى تعرفها ... فاذا أكثر الناس يصغون الى فى أمور حياتهم ومعاشهم ولا

يذكرون تلك التعاليم والمبادىء السماوية الا يوم يجدون في أوقاتهم فراغا للتفكير فى السماء . انى ذكى . انى لم أرد قط فى حربى ضد المسيح ان أقتلع المسيحية من النفوس ، ولكنى أظهرت فى لباقة ما فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ماداموا آدميين ... فليصغوا اذن الى أغانى الجسد وأناشيد التراب والطين .. وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيدا عن الارض والحياة ... وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفا روحيا لا يقتنيه غير خاصة الخاصة ، أولئك الذين لم أستطع ان أخاطب فيهم منطق الاجساد والعناصر

عزرائيل ــ لقد أدرك الله غرضك الاثيم فأرسل محمدا بدين لا ينكر منطق الاجساد والعناصر ... دين لا يعرف الرهبنة ولا انكار قوانين الارض ... دين لا يكره ان يصغى أتباعه الى اغانى السماء والارض معا ... ما وسائل حربك اذن ضد محمد والاسلام ؟

ابليس ــ حقا ... تلك هى المشكلة ! لهذا كان ذلك النبى ألد عدو لى !

عزرائيل ــ انه خاتم الانبياء لانه ضيق عليك الخناق ، وسد كل ثغرة يمكن ان تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت صانع ؟ ...

ابليس ــ دعنى أفكر ...

عزرائيل ــ فكر طول الابد ... فلن تظفر

ابليس ـ بل لقد فكرت وظفرت ... الامر بسيط : يجب على أن أطمس خصائص هذا الدين ... انى خبرت الناس لطول لصوقى بهم وعشرتى لهم ... ان النـــاس يميلون دائما الى التشبيه ... هذه القرود الناطقة ... يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر فى فلسفة الاشياء ... غدا عندما يوارى محمد فى التراب ... ويصبح ذكرا وطيفا كموسى والمسيح لن يفرق الناس بين محمد وموسى والمسيح ، بل ربما قبل ان يواروه فى الحفرة ... انظر .. أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه ؟ اصغ اليه ...

عزرائيل ـ اياك ان توسوس له بشىء

ابليس ـ اصغ اليه ...

(عمر بن الخطاب يقوم فى الناس صائحا)

عمر ـ لا اسمعن احدا يقول : ان محمدا قد مات ، ولكنه أرسل اليه كما أرسل الى موسى ، فلبث عن قومه اربعين ليلة . والله انى لارجو ان تقطـــع أيدى رجال وارجلهم يزعمون انه مات !

عزرائيل ـ عجبا ! ما هذا الذى يقول ؟!

ابليس ـ أرأيت ؟ أنهم قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب !

عزرائيل ـ كذبت ! انما هى وسوسة منك !

ابليس ـ صه ! انظر ! هذا أيضا رجل من بين الناس يريد ان يقول شيئا ...

(ينهض أحد الناس صائحا)

أحد الناس ـ ان رسول الله قد رفع كما رفع عيسى وليرجعن !

عزرائيل ـ رباه ! ماذا اسمع !

ابليس ـ أرأيت ؟ انهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه فى الاثواب !

عزرائيل ـ لست أصدق ما أرى وما اسمع

ابليس ـ لقد قلت لك انى اعرف منك بالبشر

عزرائيل ـ اللهم نورك ! كيف خفى على هؤلاء ان دينهم لم يكن تكريرا لما سبقه من اديان ! .. اللهم انك منزه عن اللغو والتكرار !

ابليس ـ ما ابهج هذا النهار ؟ الا تطربك اغنيتى :

ذهب عدوى الى الفناء
اليوم عيدى فالى الغناء

عزرائيل ـ آه ، لو استطعت ان ابطش بك ..

ابليس ـ اقبض روحى ان قدرت

عزرائيل ـ ليس لك روح يقبض

ابليس ـ بل لى روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان!

عزرائيل ـ يداى حقا لا تستطيعان ، ولكن يد رضيع تستطيع .. ان روحك ليزهق فى اليوم ألوف المرات ... ان روحك لينطفىء فى قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن

ومحسنة وخير وخيرة ... ان روحـــك مارد من دخان يستطيع طفل بكلمة طيبة ان يحبسه فى قمقم من نحاس !

ابليس ــ ولكنى لا أموت ولا أذهب الى الفناء ... لانى سلطان الارض وروح الارض .. ولن اترك الارض مابقيت دودة تسعى فى الارض !

عزرائيل ــ ابق ما شئت فى الارض ولكنك لن تقوى على دحر اعدائك ...

ابليس ــ عجبا لك ! او لم تر كيف انى فى لحظة استطعت أن أغير معنى الدين الذى قضى محمد حياته كلها فى تجليته واظهاره وتوضيحه .. ؟ ألم يذكر محمد قومه فى كل وقت أنه بشر يوحى اليه ... وانه يحيا ويموت كبقية الناس.. وان دينه هو دين الحياة ... الذى يحل للناس كل وسائل العيش الصالح على هذه الارض .. وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشرى ... فلا ينبغى ان يؤلهه الناس كما ألهوا المسيح ، ولا ان ينكروا امكان موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه؟ فكيف اذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه ؟ ...

عزرائيل ــ انهم لم يغيروا شيئا ... ولئن وقع فى نفسك شىء من كلام عمر بن الخطاب ، فهو ولا ريب قد قال ماقال خوفا من الردة !

ابليس ــ ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ... انهم اذن كانوا يعبدون محمدا !

عزرائيل ــ اللهم ألق نورك فى صدور الناس !
ابليس ــ هيهات ! ان ما تسميه « وســـوستى » قد استقر الساعة فى صدور الناس ...
عزرائيل ــ خسئت أيها الخاسر ... انظـــر ... انظر ..
ابليس ــ ماذا ؟ من هذا ؟
عزرائيل ــ هـــذا أبو بكر يقوم فى الناس . . . اصغ اليه ...
(أبو بكر ينهض فى الناس صائحا)
أبو بكر ــ أيها الناس ... أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات ... ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت !
عزرائيل ــ وافرحتاه ... أسمعت ؟
ابليس ــ ؟ ؟ ؟
عزرائيل ــ انظر أيضا .. انظر .. هذا العباس يريد أن يقول شيئا ...
(العباس يقوم فى الناس صائحا)
العباس ــ أيها الناس ... والله الذى لا اله الا هو ، لقد ذاق رسول الله الموت ، وانه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا صاحبكم ... انه ما مات حتى ترك السبيل نهجا واضحا ... أحل الحلال وحرم الحرام ... ونكح وطلق وحارب وسالم ... وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس

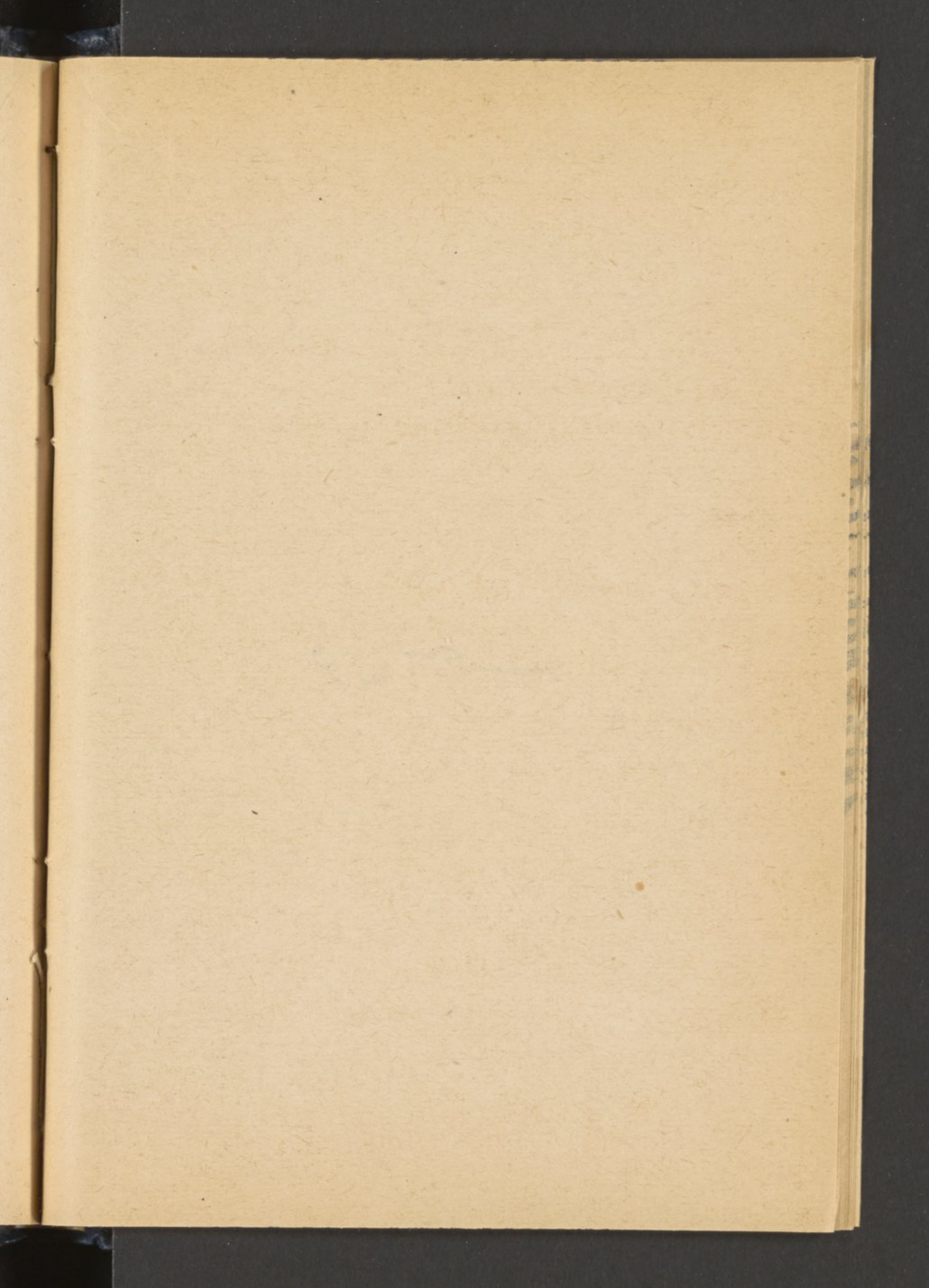
الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم !

(عزرائيل يلتفت الى ابليس صائحا صيحة انتصار)

عزرائيل ـ ماذا تقول الآن فى هذا ؟ اغرب الآن عن هذا المكان . . . لقـــد ظهر معنى الاســلام ، وتألق روح هذا الدين . . . !



فوق السحب



حضر الى ذات صباح مندوب احدى الصحف ، وأخبرنى أن مكانى محجوز فى الطيارة الذاهبة الى الاسكندرية فى اليوم الذى اختاره والساعة التى أحددها فترددت ... ولكنه أسرع يقول لى :

ـ ان سفر الاستاذ بالطيارة له قيمته من الوجهة الصحفية !

فنظرت اليه بذهن شارد وقلت كالمخاطب لنفسى :

ـ واذا سقطت الطيارة بالاستاذ ؟!

فأسرع يقول دون أن يتبصر فى قوله :

ـ يكون أحسن وأتم، فهو كذلك خبر له قيمته من الوجهة الصحفية !

فأفقت فى الحال :

ـ شىء جميل !

وتنبه الصحفى لزلة لسانه وارتبك واعتذر :

ـ غرضى يا أستاذ ...

ـ غرضك ظاهر من أوله ...

ـ من يعلم ؟... ربما عدت الينا بالسلامة ...

ـ ربما !؟؟

ـ قصدى أقول انك ان شاء الله راجع بالسلامة منشرح الصدر غير نادم على المخاطرة ، وما فاز باللذة الا الجسور !

ومضى هـــذا الابليس العصرى يزين الى لا الهبوط من السماء الى الارض ، بل ترك الارض والصعود الى السماء ! ويتحدث عن جمال الرحلة الجوية فى ذاتها بغض النظر عن المقال المطلوب ٠ وتمت الغواية وقبلت آخر الامر،وانصرف عنى الصحفى راضيا ظافرا فى الحالين : مقالتى أو حياتى!!

وجلست أفكر قليلا . لقد كان على أن أسافر حقيقة الى الاسكندرية بعد يومين لحضور عقد زواج أحـد الاصدقاء ٠ وكان على أن أصاحب «العريس» من القاهرة الى الاسكندرية فقلت فى نفسى :

ـ فـكرة ٠ لمـاذا لا أغرى « العريس » بالسفر معى فى الطيارة ؟..

ولم أضـع وقتا ٠ وذهبت من فورى الى ذلك الصـديق السعيد فأنبأته الخبر واقترحت عليه هـذا السفر فاصفر وجهه :

ـ طيارة ؟!

وأطرق يفكر فى « حجج »يتذرع بها دفعا لهـذا البلاء ! وكأنه اهتدى الى احداها فقال :

ـ أنسيت أن معى حقيبة كبيرة بها « الفراك »والقمصان المنشاة وملابس أخرى داخلية وخارجية ؟

ـ اطمئن ! لكل راكب الحق فى١٥ كيلو زيادة علىوزنه٠

فقال فى لهجة العزم القاطع :

ـ مستحيل !

ـ خفت ؟!

ـ ليس الخوف • لكنى لا أرى معنى للسفر بالطيارة

ـ المعنى كل المعنى فى سفرك الآن بالطيارة • فأنت ذاهب الى عروسك التى تنتظرك • وليس أحب الى قلبهامن أن تعرف أنك ذاهب اليها طائرا من فرط الشوق أنسيت قول ذلك الاعرابى الولهان :

أسرب القطا من يعير جناحه

لعلى الى من قد هويت أطير ؟

عذر ذلك الاعرابى واضح • أما أنت فما عذرك يامن تجد فىهذا العصر سربا من « قطا » شركة مصرذاتالاجنحة القوية والمحركات الكهربائية ؟

فلمعت عين صاحبى وأعجبته فكرة الطيران الى عروسه• ووجد فيها شعرا وخيالا • فأذعن وقال :

ـ غلبتنى

وانصرف يعد العدة • وبقيت أنا أمتع نفسى بلذة الظفر بنجاح الاغراء•• ولا أنكر أنى أحسست الاطمئنان يجرى فى دمى • فأنا أخشى دائما أن ينفرد بى « القدر » وجها لوجه • ويخيل الى أن بيننا مبارزة خفية سلاحها السخرية الخطرة • وأعتقد أنه ينبغى لى أن أختفى دائما وراء منكبى

رجل كتبت له السعادة • تلك هى « التميمة » التى تقينى شر القدر • ان من الامثال الشعبية التى أحفظها مثلا أومن به : (ضع قدمك فى «مركوب» السعيد تسعد) • وهـذا « العريس » رجل سعيد طيب القلب والسريرة ممتلىءالجسم صحة وقوة وايمانا بالحياة ولا أظن ساعة مثله قد حانت • ويخيل الى أن من الناس من يشيح الموت عنهم بوجهه كما يشيـح ابليس عن المصحف أو الصليب • من أجـل ذلك حرصت كل الحرص أن أكون فى ركاب هـذا « السعيد » حتى لايرانى القدر ولا يجرؤ على النظر الينا بسوء

وجاء يوم السفر وذهبت الى المطار وجعلت عيناى الزائغتان تبحثان عن « العريس» فى كل مكان ، ودق الجرس ووقفت الطيارة المسافرة تأخذ مؤونتها من الزيت والبنزين • وتم وزنى مع عصـاى « ستين » كيلو لا أكثر ولا أقل . وطلب الى موظف الشركة المبادرة بالركوب . فالتفت يمينا وشمالا فقال أحدهم :

ـ أتنتظر أحدا ؟

فأومأت بالايجاب • فقال :

ـ فات الوقت • ولن يأتى أحـد • والطيـارة قائمـة فتفضل !

عندئذ أدركت أن العريس قد هرب • وحدثتنى نفسى أن أتخلف أنا أيضـا وأعود أدراجى • ولـكن موظف المطار استعجلنى قائلا :

ـ من حسن حظك أنه ليس اليوم فى الطيارة غيرك

وجذبنى من ذراعى فى رفق ومشينا حتى دنونا من السلم المدلى من باب الطيارة وليس بها أحد حقيقة ٠ولكن قد خيل الى أننى أرى فيها شخصا هو لا شك «القدر» أو «الشيطان» فى شبه بذلة رسمية سوداء وهو يبتسم لى ابتسامة صفراء ٠ فما تمالكت وقلت للموظف فى ذعر :

ـ أنا وحدى فى الطيارة ؟

ـ نعم من حسن الحظ ٠ فأنت كأنك قائم بطائرة خاصة

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ أشكركم جدا ٠ لا ضرورة لقيام طائرة خاصة من أجلى ٠٠٠ هذا شرف عظيم ٠٠٠

وأردت أن أبتعد عن السلم وأن أهرب من المطار ٠٠ ولكن٠٠فجأة ظهرت سيارة تأتى مسرعة لمحت فيها الصحفى وكان قد أخبرنى أنه ربما جاء المطار لتوديعى ٠ ولعله فى واقع الامر ما جاء الا ليطمئن ويرانى بعينه صاعدا فى الجو٠ فلم أجد مفرا ٠ وعدت الى السلم صاغرا وانا ألوح له بيدى فى غير حماس ردا على تحيته الخالصة وتوديعه الحار ٠ وأجلسنى الموظف المختص فى آخر مقعد قرب الذيل وأرانى مكان القطن أضعه فى أذنى اذا أزعجنى صوت المحركات ٠ وأرانى آنية من الورق تنفعنى اذا أصابنى دوار وقىء ٠ وأقفل على الباب ٠ ورفع السلم وأديرت المحركات ٠ وارتفعت وأنا أقول فى نفسى :

ـ اذا سقطت الطيارة فان الجرائد ستنشر الخبر تحت

عنوان « ولكن الله سلم » . وستزف التهانىء اذ لم يكن بالطيارة من حسن الحظ ركاب . فما أجمل هذه النهاية !!

ولم تلبث الطائرة أن امتطت الجو وثبتت عليه ومخرت فيه ولم يعد يخيل الى انى معلق فى فضاء . بل أن فكرة الفضاء نفسها قد ذهبت من عالم احساسى . وقلت فى نفسى :

ـ عجبا . كم من الاخطاء تسبح فى أذهاننا كأنها الجراثيم . كلمة « الفضاء » واحدة منها . ليس هناك فضاء . وان الطيارة لتسير على شىء هو اثبت مادة من الارض تحت عجلات القطار .. ونظرت من النافذة فاذا منظر لن أنساه . رأيت القطر المصرى تحتى كأنه خريطة جغرافية كبيرة مصنوعة من الجبس الملون . وما أنا الا ذبابة أو مخلوق وهمى كمخلوقات « سويفت » يركب جناح بعوضة هائمة فوق هذه الخريطة . فهذا النيل العظيم بفروعه ورياحاته ليس الا قنوات صغيرة كقنوات الحارات فى اليوم المطير ، يلعب فيها الصبيان ويقيمون عليها السدود من الوحل والطين . وهذه المدن الصغيرة أو الكبيرة ليست الا خلايا نحل وأعشاش عصافير ، وهذه الحقول والغيطان فهى عجب آخر : كل أرض مصر الخصبة ليست الا سجادة « مودرن » برسومها ذات الخطوط المربعة والمثلثة والمستطيلة . وقد صبغت بالاصفر والاخضر والاسود . ألوان ثلاثة هى وحدها التى تلعب

وتحرى وتتوزع فى أنحاء هذه السجادة كأنها أنغام ثلاثة فى قطعة موسيقية ٠٠٠

ولم أشعر قط أنى أتحرك ٠ ولكنى كنت أشعر أن أحدا يحرك قليلا تحت أنظارى هذه السجادة ٠٠ هى التى تتغير فى أوضاعها وتكشف لى عن بعض حدودها ودقائقها . اما أنا فشىء ثابت ينظر من عل كأنه اله ٠ وأمعنت النظر من الجهتين ومن النافذتين ٠ فرأيت طرف السجادة الغربى قد تهدل على شبه رمال ٠٠٠ انها قد وضعت من غير شك فى صحراء ٠ كما يضع الناسك سجادة الصلاة فى الخلاء

ولم يمض قليل حتى جذبت يد خفية هذه السجادة فاذا بى لا أرى غير الصحراء تحت أنظارى ، كأنها بحر قد عبث النسيم بوجهه الصافى وأثار فيه تموجات خفيفة رقيقة لم تمسها بعد اصبع ٠ تلك بقاع بكر من الصحراء لا يمكن أن تفاجئها غير عين الله وعين بعض الطيور النادرة ٠ أنا الآن أحدها بفضل هذه الاجنحة المصنوعة من القطن والخشب !

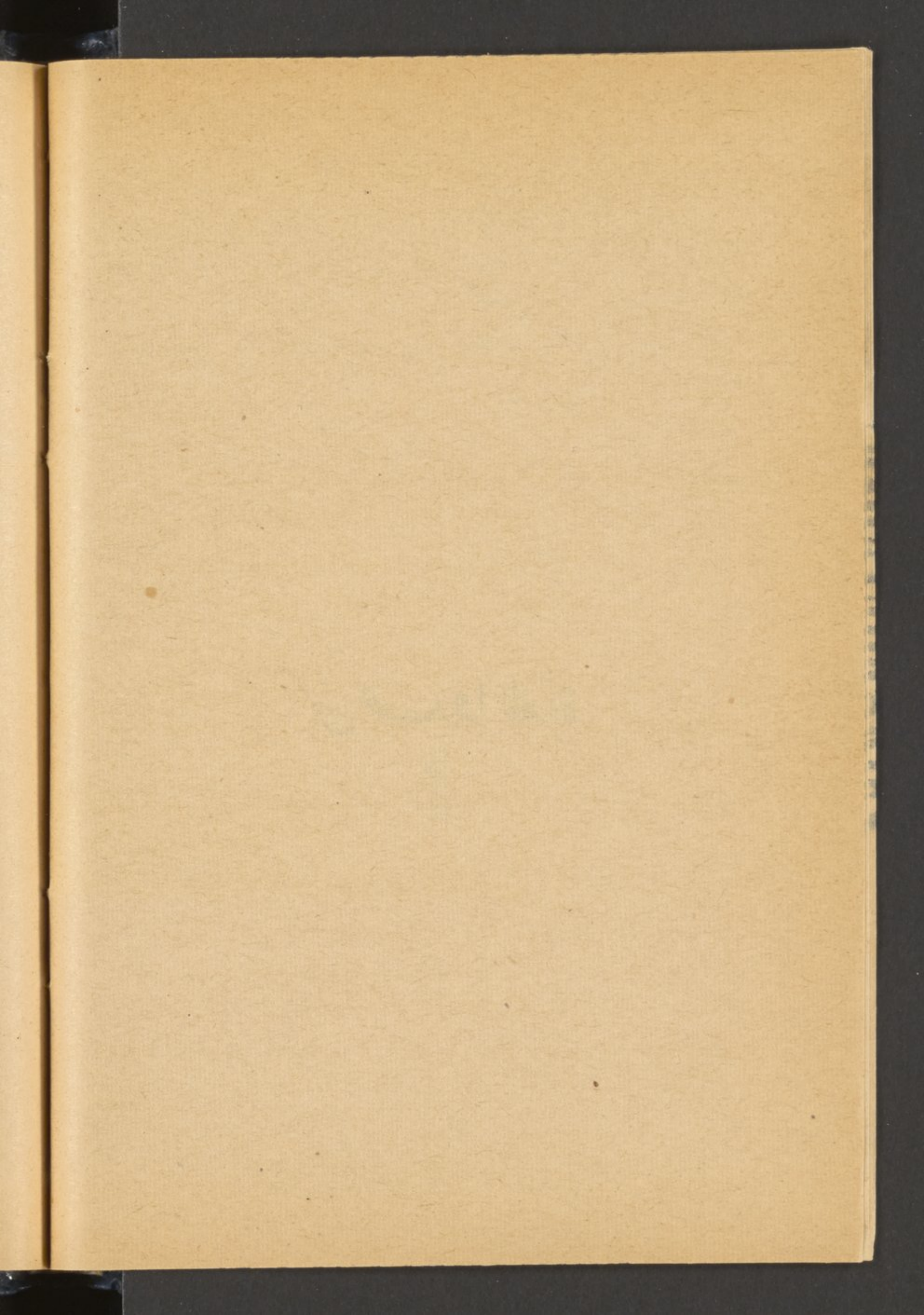
وذهب هذا البحر الاصفر ٠ وبدأت عينى ترى أطراف ذلك البحر الازرق يبرق عن بعد كأنه فص فيروز فى كف الكون ٠ وأطلت النظر واقترب منى البحر حتى انطرح تحت أقدامى عاريا كتمثال امرأة ٠٠٠ من البلور ٠ ورأيت فيه الثغر صغيرا كأنه يضحك ٠٠ عن بضع سفن شراعية بيضاء وبخارية كألاعيب الاطفال ٠ فعلمت أنى قد وصلت سالما

وهبط بى ذلك الجناح السـحرى . فاذا أنا فى مطار الدخيلة واذا الوقت الذى مضى بين القاهرة والاسـكندرية لحظة كالحلم لم أفكر أثناءها فى موت ولا فى حياة ...

لقد كنت فى عالم لا يعرف الموت والحياة : لقد كنت فوق السحب !!

§

كنْ عدوا للمرأة



صحت فى يوم من أيام الربيع ، هب فيه على وجهى نسيم لطيف ووقعت فيه عينى على أغصان تتمايل وأزهار مفتحة تتضاحك :

ـ أيها الشيطان ! يا شيطان الفن ! يا سجانى وجلادى ! أطلقنى من أغلالك قليلا ! انى أريد الحب ! انى أريد المرأة !

فابتسم شيطانى ولم يزد على أن قال ساخرا :

ـ المرأة مخلوق تافه !

ـ كلا

ـ بلى . أنها ليست جديرة بك أيها الفنان الخلاق . انها مخلوق تافه من ضلع تافه ، صنعت من أضلاع آدم وخرجت من الجنة وأخرجته بسبب تافه . فهى فى الحقيقة ماوجدت الا لتحشو ثغرات الحياة ، وتسد فراغ الايام والليالى بالاشياء التافهة

ـ ولكن المرأة هى التى تدخلنا النعيم

ـ وهى التى تخرجك منه . وقد أخرجت آدم من قبل بالفعل . فاحذر أن تقبل جنة ونارا من صنع المرأة . واحرص كل الحرص أن تكون سيد نفسك . وأن تصنع لنفسك نعيما وجحيما لاتعرفهما المرأة . ان جنتك لاينبغى أن يكون فيها حية ولا تفاح . فهى جنة هادئة صافية :

جنة الفكر والتأمل والخلق والابداع اذا دخلتها امرأة حلت فيها الفوضى ، وانفرطت عقود درها المنظوم ، وتحطمت تماثيلها المرمرية . أما جحيمك فهو مملوء بعذاب الشك والقلق الفكرى ، وعذاب القصور عن ادراك الكمال الفنى ، آلام لاتفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها . فأنت ترى أن فى نفسك « منطقة مقدسة » لا أسمح ولا ينبغى أنت أن تسمح لامرأة بالدنو منها

ـ ولكن أتوق أن اعيش لحظة مع امرأة !

ـ تستطيع أن تعيش دائما مع شبح امرأة . ولكن أى امرأة ؟! ان تلك التى سمحت لك بادخالها جنتك ينبغى أن تكون امرأة لاككل النساء . انها النور بغير مصباح . وهى قطرات النشوة بغير خمر . هى عروس لها جسم المرأة وكل شيء جميل فى المرأة ، متدثرة فى رداء من خيالك الذهبى ، وكل ماهو جميل فى نفسك قد أسبغته أنت عليها حللاً رائعة . هى ملكة جنتك التى توحى اليك بخير ماتخرج وماتبدع . فالمرأة التى لها شأن فى حياتك هى كما ترى ينبغى أن تكون من صنع يدك ومن مخلوقات رأسك

ـ ان الحقيقة أحيانا أبرع من الخيال ، وان الحياة لقديرة أحيانا أن تقذف الى سطحها بلؤلؤة فى شكل امرأة تسطع من بين ملايين أصدافها . فلماذا أيها الشيطان لا تسمح لى مرة بما سمحت به للآخرين ؟

ـ لا أستطيع أن أسمح لك ، ولست أنت وحدك ، فلقد

وجدت هذه الاسطر الدامعة فى ورقة منفصلة بين مخلفات بيتهوفن : « الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتى سعيدة . آه يا الهى دعنى أجدها أخيرا ، تلك التى فى مقدورها ان تدعم فضائلى ، تلك التى قد سمح لى أن تكون زوجتى » ، ومات بيتهوفن ولم يسمح له

– لماذا ؟

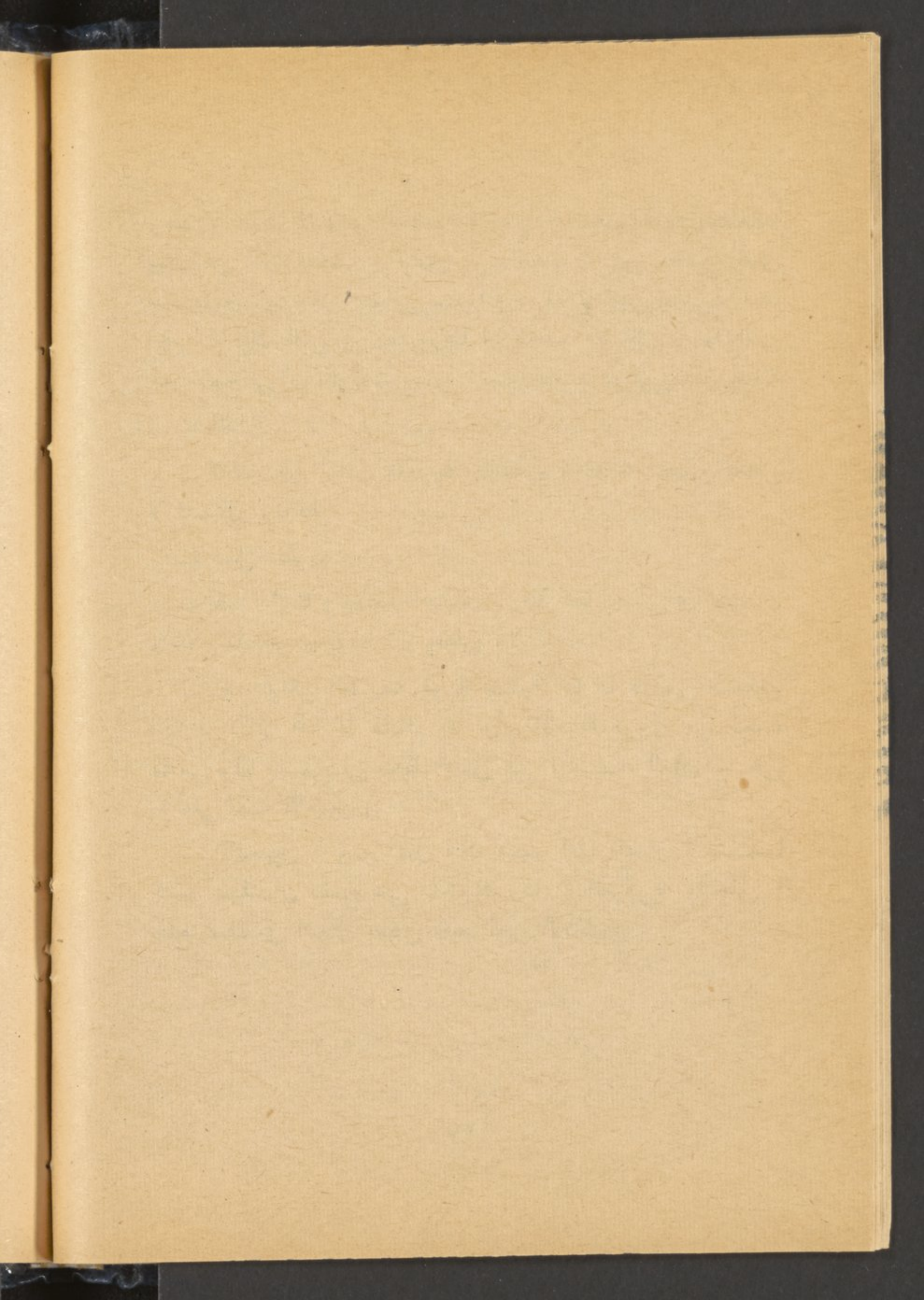
– لانك أيها الفنان عبقرية خالقة ، وجدت لتخلق وتعطى لا لتسأل وتأخذ

– مثل الطبيعة

– نعم ، أنت والطبيعة سيان . كلا كما يعيش فى الحرمان وكلا كما سر وجوده أن يعطى ولا يأخذ

– آه ، ولكن الطبيعة قوية جبارة أما أنا فآدمى مسكين انها لا تتألم أما أنا فأتألم اذ أرى الحياة تزول من تحت قدمى ولم يسمح لى بحظ قليل من الهنـــاء الذى يسخى به على بقية الآميين !

– الآدميين ؟ ومن قال انك منهم أيها الفنان ! عنـــدما كتب عليك أن تضع على منكبيك رداء « العبقرية والخلق » خلع عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !



من الأبدية



لو كنت فى الابدية ماذا أشاهد ؟

لطالما خطر لى هذا السؤال كلما شاهدت جنازة مارة فى الطريق . ترى لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام ماذا كان يصنع ؟ لوعلم أن هؤلاء المشيعين لا يتكلمون عنه طول الوقت . وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة اذا طال المشى ، ولم يبد بعد أثر المسجد الذى سيصلى عليه فيه . وأن منهم من يسلى نفسه وجاره فى أثناء السير بحكايات ونوادر قد تدعو الى الضحك والابتسام . وان منهم من يتكلم فى عمله وتجارته وبيته وغيطه . لو علم الميت أن كل ماخصه هو من كل هذا الكلام الذى يدور خلف خشبته لا يعدو دقائق معدودات ، وأن كل ماانفق من وقت المشيعين فى الخشوع لجلال الموت لا يتجاوز لحظات ، وان الصمت الرهيب الذى كان يجب أن يحيط بنعشه لم يدم أكثر من دقيقة ، ثم بدأ الهمس يعلو ، والهمهمة ترتفع ، والكلام والثرثرة يدويان بين الصفوف فى طنين كطنين الذباب ، ذلك أن الناس غير قديرين على نسيان انفسهم والسمو عن هذه الارض والارتفاع عن شئون حياتهم العادية الصغيرة أكثر من خمس دقائق

ومع ذلك ، لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت موقفا

أجل من هذا ؟ ان الموت لايجل ولا يعظم حقا الا فى نظر من يموت ، فى تلك اللحظة التىيشعر فيها المحتضر انه مفارق هذه الدار التى عرفها وعرف أهلها الى مكان مجهول ، فراقا لا رجعة بعده ، فى تلك اللحظة يرى المحتضر الدنيا تبتعد عنه كما تبتعد المحطة عن أنظار المسافر فى قطار . ويرى دموع المودعين من الاهل والخلان تتساقط على باقات الازهار يقدمونها اليه فيخيل اليه أن ذهابه سيغير وجه الارض . ولا يعلم أن هؤلاء المودعين سينصرفون من باب المحطة الى شئونهم ضاحكين كأن لم يحدث شىء . ترى لو رأى الميت كل ذلك فى صندوقه وأعطى القدرة علىالخروج منه والنهوض ، اما كان يصيح فى الناس :

ــ أتسمون أنفسكم مشيعين ؟ انصرفوا أيها اللكعاء !

انى شخصيا لا اعتقد أن الميت يفعل ذلك أو يقوله لو قدر عليه . ان الميت اذ يجتاز عتبة العالم الآخر ويدخل منطقة « الصفاء » ينظر الى الناس واحوالهم من عل كما ينظر الانسان الى سرب من النمل يحمل جناح صرصار الى ثقب فى أسفل الجدار . انه يستكثر على الناس مجرد التحرك فى تابوته لينظر الى مايفعلون . انه يستكثر على المادحين والقادحين حتى مجرد ابتسامة سخرية تعلو شفتيه الجافتين الباهتتين

فهذا السؤال الذى القيته على نفسى لا معنى له عند الميت . انما هو سؤال يمليه علينا غرورنا نحن الاحياء

على انى على كل حال لو تمنيت شيئا بعد الموت ، لرغبت فى أن أقول أنا رأيى فى الناس وقد تركتهم ، قبل أن يقولوا هم عنى شيئا . وهذا مستطاع . وقد فعل ذلك فيما أعلم أحد الامريكان او الانجليز غريبى الاطوار . اذ سجل خطبة له فى اسطوانة فنوغراف وأوصى المشيعين أن يطلقوها على قبره تنطق بصوته وانفاسه وضحكاته وكلماته . فماذا يمنعنى أن أصنع مثله ، وأن أقوم فى الناس خطيبا بعد موتى أقول فيهم :

— سيداتى وسادتى :

« أولا .. فلتجفف السيدات أعينهن حتى لا يضيع كلامى بين الشهقات ، وحتى لا تضيع الدموع طلاء وجوههن وصبغة شفاههن ، وهذا هو المهم . فانى مازلت حريصا على أن تكون المرأة جميلة . فالجمال هو العذر الوحيد الذى به نغتفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها . عفوا . لقد نسيت أنى ميت وأنه ماكان يليق بى أن أوجه اليكن ايتها السيدات هذه الالفاظ فى مثل هذه اللحظة الرهيبة . انتن ولاريب تصغين الى الساعة والغيظ باد عليكن ، ولولا جلال الموت ، لالقيتن على قبرى أحذيتكن ذات الكعب العالى ، ان كل ما ستفعلنه الآن عقابا لى وامتهانا لشأنى هو أن تخفين فى الحال مناديل العبرات العاطرة وتخرجن اصابع الاحمر الناضرة ، وتنظرن فى مرآة الحقيبة الصغيرة وتهززن أكتافكن قائلة احداكن للاخرى : « والنبى الدموع فيه خسارة ! »

وهذا ما أريد أن أصل اليه . وهذه نصيحتى الثمينة لكن معشر الاحياء من النساء : حذار أن تتلفن هدبا واحدا من أهدابكن الجميلة من أجل شيء على هذه الارض . فان الارض كلها لاتساوى هدبا واحدا من أهدابكن !

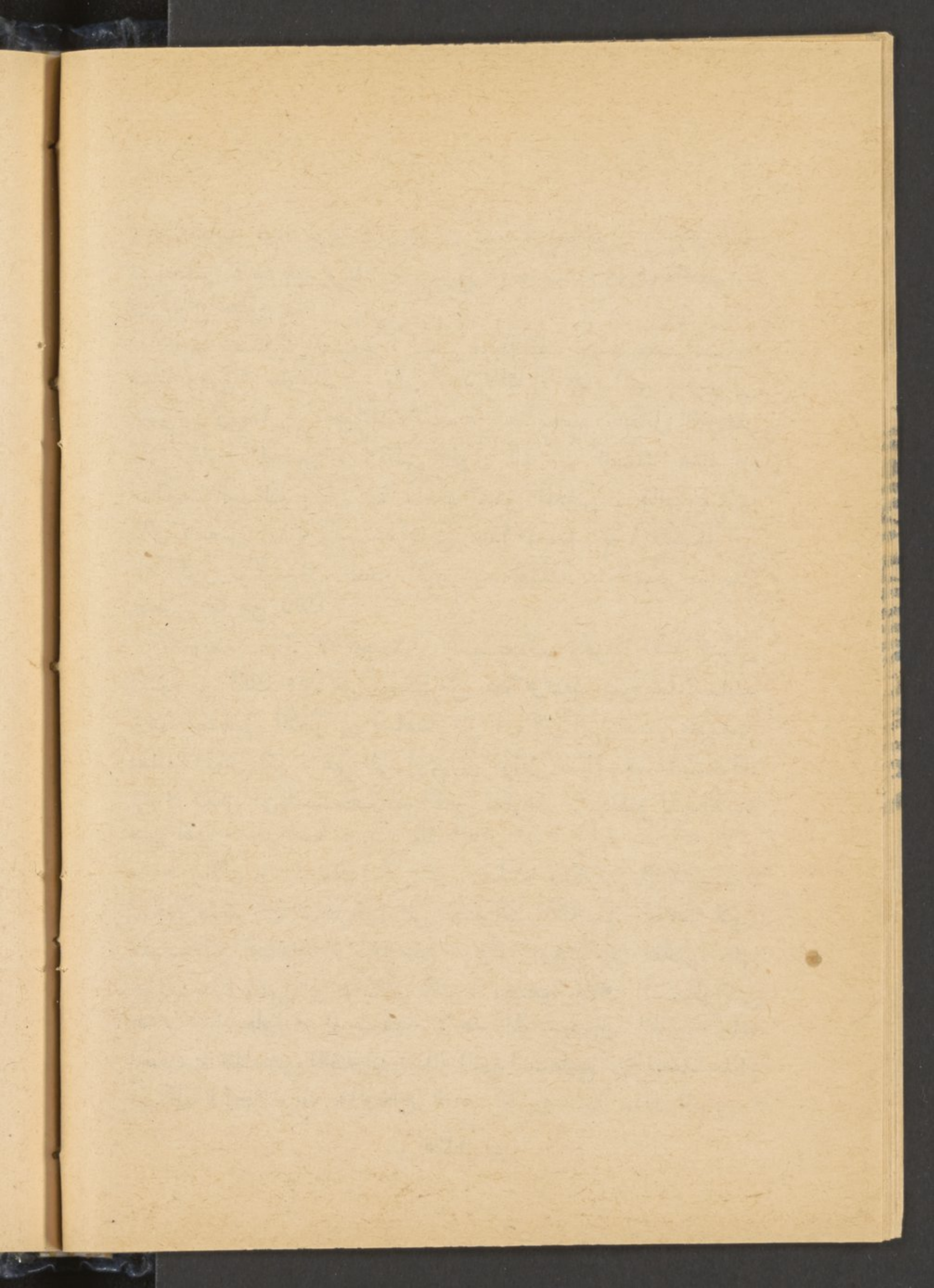
« أما أنتم أيها الرجال والاصدقاء والمعجبون ، المرتدون السواد على فقيد الادب ، المحزونون لفداحة المصاب الجلل الباكون لمارزئت به العربية والناطقون بالضاد .. الى آخر هذا الهراء الذى سيملأ به خطباؤكم وشعراؤكم تلك المراثى البليغة والقصائد العصماء .. وانى لالمح الساعة جيوب بعضكم منتفخة بشعر ونثر قد كتب خاصة للتأبين . ولعل أكثره قد وضع قبل الاحتضار حتى يكون معدا للالقاء فى الوقت المناسب . ولعل احدى تلك القصائد قد نشرت اليوم فى صحف الصباح بينما نشر الى جانبها خبر الوفاة كأنما القصيدة العصماء قد خرجت من صدر صاحبها ساعة خروج روحي من صدر ى! لم كل هذا الاسراع ؟ ألا يتركنى الادب وشأنى وقد صرت ترابا ؟ أيظل يلاحقنى شيطان الفن ويصيح فى أثرى وأنا أفر منه الى عالم أرجو أن لاأرى وجهه فيه ؟ أما يكفيه أنه اضاع على حياة نابضة ، اناالذى صنعه خالقه من لحم ودم ، ووضعه فى دنيا جميلة زاهرة ، وقال له : « انطلق وعش حياتك فى هذه الحياة » . فلم أفعل ذلك . ولكنى أحلت لحمى ودمى الى ورق ومداد . آه .. انكم لو أنصفتم معشر المشيعين لوضعتم جثتى مع كتبى وأشعلتم النار فى كل هذا . عجبا . انى أبصر أحدكم

وهو شاب فيما أرى لايريد أن يصدق ماأقول . وان فمه ليرتجف كانما هو يريد أن يصرخ متحمسا : «فى ذمة الخلود ! فى ذمة الخلود ! »

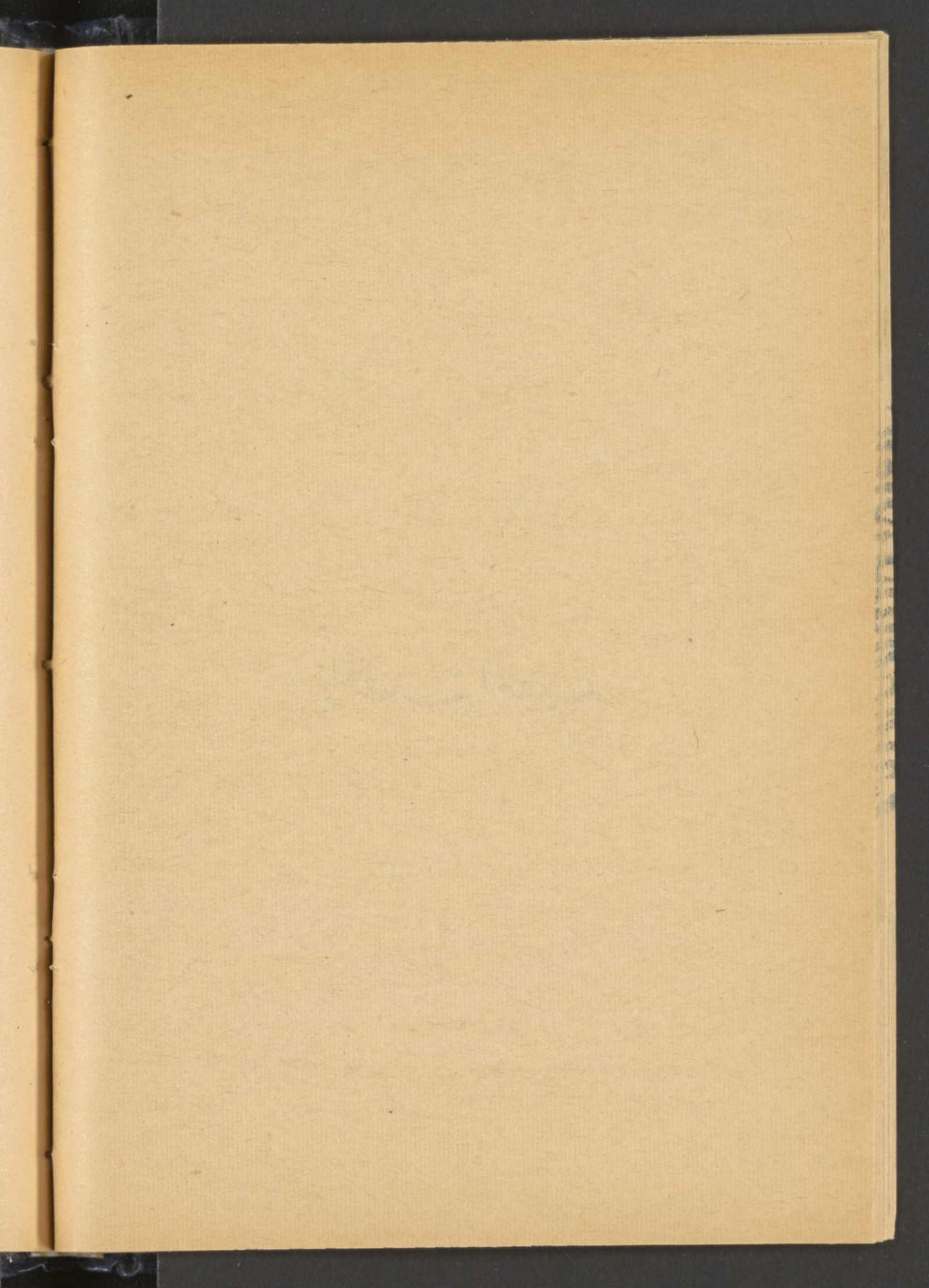
«أيها الصديق الصغير ! ليس من اللطف أن أضحك الساعة منك ومن « خلودك » ، وأن أبدد تلك الاحلام التى تخيم على عشرين ربيعا من حياتك النضرة كما تخيم خمائل الازهار على خلوة المحبين ، ولكنى أقول لك ان كلمتك هذه ان صلحت لسنك وكان لها عندك أعمق المعانى ، فانها عندى الآن لامعنى لها ، ولست أدرى ماذا تقصد بها ! تقصد أنى قد أكون تركت لكم بعض آثار ربما بقيت .. فليكن . ماذا يهمنى أنا من ذلك ؟

« وبعد ... لا أحب أن أستبقيكم وقوفا أمام قبرى اكثر من ذلك فان من بينكم من قد ارتبط بمواعيد سابقة وهو يختلس النظر فى ساعته من آن لآن . وليس عندى بعدما أقول لكم ، غير انى أرى فى أوائل صفوفكم أصدقاء لى لا يمكن أن أستخف بعواطفى نحوهم . ولعل صداقتهم هى خير ماخرجت به من تلك الدار

« والآن ، اسمحوا لى أن أسكت سكوتى الابدى رانا أرجو منكم أن تنصرفوا الى شئونكم كأنه لم يحدث شىء فلست فى حاجة الى كلامكم ، واذا أردتم أن تعقبوا على قولى هذا بشىء فى دنياكم تلك ، فضعوا مكان اسطوانتى هذه : اسطوانة موسيقية لاحد الموسيقيين الذين كنت أحبهم ، تلك هى اللغة الوحيدة التى أستطيع أن أفهمها عنكم فى كل وقت ... والوداع »



راقصة المعبد



ذكرى سالزبورج

صيف ١٩٣٦

ثعبان قد انساب بين الجبال والوديان ، تارة يصعد كأنه يلاحق العصافير ، وتارة يهبط كأنه يرد الماء المنحدر من القمم ، وتارة يسعى فى نفق مظلم طويل كأنه يختفى عن أنظار المطاردين . ذلك هو القطار القـــادم من سالزبورج الذاهب الى باريس . وكنت فى مقعدى أحمل كتابا ولااقرأ ، وأى عين تستطيع أن تثبت على صفحة وفى القطار نوافذ ، وامام النوافذ طبيعة ترقص ، أحيانا متجردة وأحيانا فى أثواب عجيبة الالوان كأنها « سالومى » فى رقصة السـبع الغلائل الحريرية . شيء واحد كان يفسد على هذا الروى الالهى : صوت الآلة الكاتبة ينقر عليها مترجمى الفرنسى نقرات متصلة ، وقد خلع سترته ، وشمر عن ســاعديه كأنما القدر قد سلطه على صفوى يكدره فى تلك الساعــة الجميلة . ولم أطق صبرا فصحت به :

ـ كفى بحق رأسك اضطهادا لرأسى . الا ترى الطبيعة أمامك كالراقصة الفاتنة وان نقرك هذا يهينها ويغضبها ؟

فأجاب دون أن يعنى بالنظر الى :

ـ الطبيعةراقصة أندلسية . ونقرى هوصوت الصفاقات الخشبية فى أصابعها

ومضى فى عمله يصفر بفمه . فقلت يائسا :

ـ وزاد علينا الصفير ! هذا « المزمار » غير «المسحور» ما حاجتنا اليه الساعة ؟ لقد كنا اكتفينا منك « بالصفاقات » !

ـ تلك أغنية غجرية سمعتها فى فيينا

فنظرت اليه شزرا ولم اتمالك :

ـ غجرية . أقسم لك بشرفك اننا نحن الفجر . وهل رأيت فوضى أعجب مما نحن فيه ! ما يقول عامل القطار لو أنه رآك الساعة على هذه الصورة ؟

ـ يقول اننا من رجال الاعمال . لامن رجال الفن المخابيل. ينبغى ان تذكر أن الناشر فى باريس ينتظر مخطوطة كتابنا غدا . والفصل الاخير لم يضرب بعد على الآلة الكاتبة . أليست فرصة سانحة أن نعمل فى القطار والمقصورة خالية ؟

لم أنبس . وملت بجسمى كله الى النافذة ، أطلب الهرب بروحى وفكرى . لكن الآلة الكاتبة بضجيجها كانت فى وجهى على المائدة الصغيرة المتحركة التى بينى وبين صاحبى . فنهضت وتركت له المكان واتجهت الى نافذة الممر فى الجهة الاخرى ... فاستوقفنى :

ـ انك لم تعطنى عنوانك فى باريس

ـ ومتى كنت أعطى عنوانى أحـدا ، فى باريس أو فى غيرها ؟

ـ وكيف أعثر عليك ؟

ـ اياك أن تعثر على . انى فى باريس أريد دائما أن أكون مثل السمك فى الماء . فاذا كان للسمك فى الماء عنوان فان لى فى باريس عنوانا . أريد أن ينطبق على قول الشـاعر « هنرى هاينى » : ان سألتم السمك فى الماء كيف حالك أيها السمك لاجابكم : انى كهنرى هاينى فى باريس !

فرفع صاحبى يده عن العمل ونظر الى مليا

ـ واعمالنا هذه ؟ . والناشر ؟ اذا طلب حضورك للتوقيع على عقود ، أأقول له ان عنوانك كعنوان السمك فى الماء ؟

ـ هذا ما ينبغى لك أن تقوله بالضبط

فضرب موريس على مفاتيح الآلة الكاتبة ضربة أوضربتين ثم قال كالمخاطب لنفسه دون أن ينظر الى :

ـ أنا الذى كان يحسب أنك تنتهز الفرصة فترى فى باريس الادباء الذين قرأوك ويتصورونك بخيالهم الاوروبى رجلا ذا عمامة كعمامة ابن سينا ، ولحية كلحية عمرالخيام، وحريم كحريم هرون الرشيد ، يعج بالجوارى الحسـان والنساء ذوات العصائب والسراويل . آه ! ما أعجبمنظرك حقا بين الجوارى والنساء ..! أنت العدو اللدود للمرأة .

شدماأنقم عليك ! انك تبغض المخلوق الوحيد الذى يستطيع ان يلهمك خير الكتب . يا للنعمة الزائلة ! هذه الكتب التى كان مقدرا لهـــا أن تخرج من هذا القلب النائم المتثائب ! كن على ثقة ان هذه الكتب كنا ننشر بعضها تباعا فى المجلات الكبرى كما يفعل اليوم كتاب العالم المشاهير فتدر علينـــا الدنانير . انك أيها الكاتب الشرقى لا تعرف كيف تؤكل الكتف !

وقرعت سمعى الكلمة الاخيرة لجوعى وقتئذ فنظـرت اليه سريعا :

ــ أين هى الكتف ؟ وأنا أعطيك العهود والمواثيق أنى أتعلم أكلها فى مثل لمح البصر

ــ أنا أدلك عليها . اصغ الى . لقد فاتنى أن أخبرك : لمحت منذ ساعة فى هذا القطار الراقصة البولونية «ناتالى . .» التى ظهرت على أحد مسارح باريس منذ عامين ورحلت الى فيينا للاشتغال بالسينما . انها حقا ذات جمال مخيف . . جمال يصعق للفور . .

فالتفت اليه مقاطعا :

ــ اتعتمد على هذه المرأة فى أن تلهمنا الكتب التى تدر علينا الدنانير ، أم انك تعتمد عليها فى صعقى للفور ؟

ــ فى كلا الامرين

ــ كن على ثقة انه ما من كتب ستكتب ، وما من دينار سيدخل جيوبنا ، انما المؤكد الموثوق منـــه أنى أنا الذى

سيصعق للفور ، ولا مصلحة لك فى ذلك فاغلق هـــذا الباب ، أيها العزيز ، ودعنا نظفر بسلامة الوصول

ـ ولكن السلامة لا تدفعك الى الكتابة . ينبغى ان تصهر فى لهب الحب حتى يهبط عليك الوحى

ـ اسكت يا موريس وكفى سخفا

ـ بل انى لجاد كل الجد

فلم ألتفت الى قوله . فنظر الى يطلب الجواب فصحت :

ـ واذا أكدت لك أنى اذ أقع فى الحب لا استطيع أن أكتب سطرين ؟

ـ اذا أحببت فانك لا تستطيع ان تكتب ؟ !

ـ مطلقا

ـ ومن الذى يكتب لك رسائل الغرام ؟

ـ فى هذه المرة ليس أمامى الا أنت

فتغير وجه موريس :

ـ أنا ؟ وألف مرة لا . اذا كانت النتيجة انى انا الذى ... لا يا سيدى العزيز

فابتسمت وقد عاد الى الاطمئنان . فاستطرد الفرنسى :

ـ وأنت عندئذ ماذا تصنع ؟

ـ أنا واقع فى الحب

فنظر الى محملقا :

ـ وهل الحب بئر اوجب ، ألقيت فيه مكتوف اليدين ؟

ـ وما هو اذن ؟

ـ أهو كذلك عندكم معشر الشرقيين ؟!

ـ لست أتكلم باسم الشرقيين ولكنى أقول لك اصالة عن نفسى انه ينبغى لك أن تفهم أن الحب شىء والتأليف شىء آخر

وأدرت له ظهرى واتجهت الى النافذة وطفقت أتأمل المناظر التى تمر بى فى تماسك وارتباط كأنها « فريسك » عظيمة رسمتها أيد سماوية على لوحة الفضاء الى أن نبهنى رنين الصينية النحاسية يقرعها خادم عربة الاكل معلنا ساعة الشاى . فنظرت الى صديقى

ـ الشاى يا موريس . بطنى قد رقصت طويلا « رقصة الجوع » حتى خارت قواها !

فلم يجب . وأشار الى برأسه انه باق للعمل . فتركته وأسرعت فقطعت دهاليز العربات على غير هدى أبحث عن عربة الطعام وانا لا اذكر ان كانت فى مؤخرة القطار أو فى المقدمة . وكانت سرعة القطار تدفع المار الى الارتطام بالجدران وبالمسافرين الواقفين فى الممر ، وأكثرهم من النساء النشطات أضجرهن طول الجلوس . فمضيت حذرا خائفا ان يختل توازنى فأقع على امرأة . والويل لى عندئذ وان كان من وراء ذلك الالهام وصنع الروايات وامتلاء جيب موريس بالدنانير والفرنكات . وبينا أنا اجتاز عربة من العربات وقد بدا على الجهد ، اذا رجل كهل أبيض الشعر فى ثياب صفراء غير نظيفة كثياب عمال القطار يقطع مثلى الممر فى نشاط عجيب . فما ان دنا منى حتى أرسل الى ، من عينين صغيرتين خلف منظار سميك ، نظرة باسمة فيها

ألفة وفيها دعوة خفيــــة الى الكلام ، وغلب على تحفظى وجمودى فلم أعبأ به ، وهممت بالاعراض عنه وسرت فى طريقى فأسرع فى أدب ولباقة ودفع أمامى باب العربة التى أريداجتيازها وهو يقول فى لهجةفرنسية غريبةلكنهامفهومة وفى نبرة مرحة تنم عن خفة روح :

ـ ما زالت لدى كما ترى قوة الشباب !

فابتسمت . وسألته من فـــورى عن عربة الاكل أين موقعها ؟ فلم يمهلنى وخف امامى يقودنى اليهابنفسهويفتح أمامى الابواب المعترضة بقبضته الصلبة وحركته النشطة . حتى أشرفنا عليها ولمحت موائدها فانطلقت نحوها من فرط جوعى . وجمدت عيناى على اطباق الزبد وأوانى العسل لا أبصرغيرها فى المكان ونسيت الشيخ الذى قادنى. واستدرت بعد هنيهة أنادى « الجرسون » كى يجلسنى فى موضع غير محجوز ، فألفيت الشيخ بالباب ينظر الى فى ابتسامتــه الوديعة فأعرضت عنه . فتركنى ووقف مع الطهاةيحادثهم . فتنفست وقلت فى نفسى : « لو صاحبت هذا الرجل ذا الثياب الصفراء المرصعة ببقع الزيت والغبار لكان جزاؤنا الطرد من هذه العربة ، فالخير فى أن أتجنبه الآن اذا كان لى فى الاكل مطمع » . وأبطأ على الغلام فرفعت بصرى عن الزبد والعسل والخبز المحمر وأدرته فى المكان أبحث عن مائدة فاذا الموائد قد شغلت ولم يبق غير كرسى خال فى مائدة تجلس اليها سيدتان فى مقتبل العمر أحداهما ذات جمال مخيف حقا .. ما ان وقعت عيناها على عينى حتى

أشحت بوجهى عنها كما يشيح الانسان بوجهه عن الشمس
.. ووجدت عن يسارى مقعدا خاليا يجلس اليه رجل من
ثراة الامريكان وزوجه ، فسقطت عليه كما يسقط العصفور
الذى أصابته عين الافعى . وهدأ روعى قليلا ورفعت رأسى
فرأيت الانظار كلها مصوبة الى هذه الجميلة . وخيل الى ،
ولعل الامر لا يعدو الخيال انه ما من واحد يجرؤ على الدنو
من المائدة التى عليها الجمال . وخيل الى أيضا انه ما من عين
تصمد طويلا أمام هاتين العينين ! كهرمان وذهب وعسل
مصفى مزجت ألوانها فخرج منها لون لست أدرى ما اسمه
بين الالوان : هو لون هاتين العينين . واقبل الغلام بأباريق
الشاى واللبن وصب منها فى فنجانى ومضى ولم أبد بعد
حراكا . وبينا انا على هذه الحال اذا عينـــاى تبصران فى
دهشة ذلك الشيخ ذا الثياب الصفراء قد عاد فدخل العربة
ومشى بخطى ثابتة مطمئنة الى مائدة الجميلة وجلس فى
المقعد الخالى الى جانبها بغير تردد ولا اضطراب . وما ان
استقر به المجلس حتى ثبت منظاره على أنفه وأرسل اليها
نظرة فاحصة هادئة . فهالنى الامر وقلت فى نفسى : « هذا
الرجل مطرود مطرود » وحانت من الرجـل التفاتة الى
وابتسم ، فعجلت وملت بوجهى عنه . وبودى لو أصيح
فى الناس قائلا : « أقسم لكم أيها الناس أنى لا أعرف هذا
الشيخ ولم أره قط فى حياتى » .. غير انى رأيت عجبا بعد
قليل : ما كدت أجازف واختلس النظر الى تلك المائدة حتى
وجدت الشيخ يحادث الجميلة وهى تحادثه وقد أضـــاء

السرور وجهها فازداد اشراقا على اشراق واذا هى تبسم وتضحك وتغرق فى الضحك . فعجبت وقلت فى نفسى : من هذا الرجل الذى استطاع ان يضحك الجميلة ولما يمض على جلوسه خمس دقائق ! واستغرب الامر كذلك بعض الركب فنظروا اليه . وجاء الغلام فطلب اليه الشيخ سلة فاكهة غضة منوعة . فانحنى له الغلام انحناءة تدل على تقدير له ومعرفة لشخصه . وكانت المرأة الاخرى صامتة قداتجهت بوجهها شطر النافذة . وقد ظهر من شأنها أنها لا تعرف الجميلة ، وانها على ملاحة وجهها هى كذلك ورشاقة قدها يعيبها جمود وصلابة ينمان عن جنسها الالمانى . ولكن .. لم يمض قليل حتى كان الشيخ قد اضحك أيضا تلك الالمانية، واخرجها لينة طيعة من محيط نفسها الجامدة كما يخرج الساحر البارع الكنز من مخبئه ، واذا المائدة قد دبت فيها روح خفيفة لطيفة واذا الجمال الصامت قد تحرك وشعت منه تيارات مرحة فتنت لب الحاضرين . واذا هذا المطعم الراكض يكاد يحس كأن روحه النابضة تلك المائدة التى جلس اليها الشيخ بين الجميلتين . وتكاد هذه العربة تشعر من فرط المرح بخفتها عن بقية العربات وبرغبتها فى الارتفاع والرقص بمن فيها فوق « الخط الحديدى » . حرت فى امر هذا الرجل العجيب وقد نزل من نفسى منزلةالاحترام. وصحت من أعماق نفسى : « ان هذا الا استاذ عظيم ! » ومنذ تلك اللحظة جعلت همى أن أترضاه ، فأكثرت النظر اليه متربصا به علنى أصيب منه فرصة . غير أن الخبيث

وقد ادرك ما بى لم يعطف على بنظرة . ولم يحفل بأمرى ولم يمل بوجهه ناحيتى قط . ولم اقنط من رحمته وجعلت أتابعه بنظرى وسمعى وأراقبه وهو يحادث الجميلة بالفرنسية فتضحك ويداعب الاخرى بالالمانية فتضحك . وأنا لا يضحك قلبى ولا يبتهج . بل يمتلىء حسرة ويأسا وخوفا ان يمعن هذا الرجل فى تعذيبى بهذا الاهمال وفى يده الآن مفتاح سعادتى وشقائى . وأراد أخيرا أن ينادى الجرسون فوقعت منه على نظرة عابرة فأسرعت بقلب واجف وأمل متجدد وابتسمت له وانحنيت برأسى تحية له واحتراما ، ولكنه ازور فى الحال بوجهه عنى كأنه لا يعرفنى وكأنه لم يرنى قط فى حياته . فهمست فى اعماق نفسى على حال كسيرة ويأس اليم وغيظ محرق « أيها الشيخ الملعون . عملتها وانتقمت لنفسك شر انتقام » .. ومضت لحظات لست أدرى ما حدث فيها ، غير أن فنجانى ظل على حاله لم أرشف منه سوى مرة او مرتين والزبد والعسل والخبز المحمر لم أضع يدى فى طبق من أطباقها . ولم يبق منى الا انسان جالس لا حراك به ينتظر فتات النظرات من مائدة الجمال . ولعل هيئتى كشفت للرجل عن دخيلتى ، وكأنما ادركته بى شفقة وكأنما أحس ان الدرس الذى اعطانيه قد أثمر . فاذا هو فجأة قد أقبل على بوجهه ونظر الى نظرة صريحة باسمة ردت الروح الى جسدى . وفى لباقة غريبة وبمناسبة لست ادرى كيف اوجدها ، وجه الى الكلام فى جو من الالفة نسج خيوطه للتو حتى كاد الحاضرون وكدت

أنا نفسى اعتقد أن المعرفة بيننا قديمة العهد قوية الاسباب دون أن أدرى أو دون ان اذكر :

ـ انك قادم من فيينا ؟

قالها الشيخ بفرنسيته الغريبـــة المفهومة . فأسرعت بالجواب :

ـ لا . بل من سالزبورج

ـ حيث المهرجان الموسيقى ؟ شأنك اذن شأن الســيدة

قالها الرجل مشيرا الى الجميلة ثم الى فى حركة لبقة هى أبلغ من التقديم ، واذا هى تقبل على فى نظرة المتسائل عن أمر حضورى المهرجان . فتعلقت بأذيال هـــذه النظرة ونهضت من مقعدى فى الحال كمن وخز بأبرة وذهبت اليهم وجلست فى المقعد الرابع الخالى الى جانب الالمانية وأنا أقول فى نفسى : « ان فاتتنى هذه الفرصة فموت مثلى خير من حياته ! » ونظرت الى الجميلة أمامى والى الشيخ الجالس بجوارها وقلت على عجل :

ـ سيدتى حضرت كذلك المهرجان ؟

ـ نعم . كان بديعا ، الا ترى ذلك ؟!

ـ وأى ابداع ! . لقد أمرضنى المطبخ النمسوى ورمى معدتى بالداء ، فشفتنى الموسيقى النمسوية ووجــدت فيها الدواء .

فقال الشيخ باسما :

ـ اذن لقد خرجت من المهرجان لا لك ولا عليك !

فضحكنا .. وقلت للشيخ :

– لقد خرجت مع ذلك بشيء لا يقوم بمال : مشاهدتى أوبرا « أورفيوس وايروديس » للموسيقى « جلوك »

فنظرت الى الجميلة فى دهش :

– أليس كذلك ؟ ! حقا انها كانت اعجب وابدع ما عرض هذا العام : انى أدهش كيف ان هذه « الاوبرا » المعروفة بما فيها من املال للنفس قد انقلبت تحت عصا « برونو فالتر » شيئا يسحر اللب . لقد جعل منها قطعة « باليه » راقصة طائرة كأنها من تأليف الملائكة . اتذكر منظر الجحيم ومنظر الفردوس ؟ ما ابدعه « كوريجرافى » .. !

فقلت لها :

– يخيل الى يا سيدتى ان « جلوك » كان قد وضع قطعته لتؤدى على هذه الصورة الراقصة لا لتغنى كما تغنى بقية الاوبرات ، لقد قالت مثل هذا القول الراقصة العظيمة « ايزادورا دونكان » وهى اعرف الناس فى نظرى«بجلوك». ماذا تراها كانت تقول لو رأت اليوم « أورفيه » كما عرضت هذا الصيف فى سالزبورج ؟!

فقالت الجميلة :

– أرأيت « ايزادورا » ؟

– رأيتها مرة منذ عشر سنوات فى رقصتها الاخيرة . وفى اليوم التالى نشرت الصحف خبر موتتها الفظيعة فى نيس مخنوقة فى غلالتها الحريرية . لقد تواطأت على قتلها

تلك الغلالة التى طالما رقصت بها ، مع الهواء الذى طالما أحبت الرقص تحت جناحيه ! لقد حزنت عليها وقلت فى نفسى : شاء القدر الا تموت حتى أراها وتزيح لعينى الستار عن عالم رائع كنت أجهل وجوده من قبل . وا أسفاه عليك يا ايزادورا !

وعندئذ قطع الشيخ الحديث وهو ينظر الى :

ـ يخيل الى انك انت أيضا يا سيدى من رجال الفن : موسيقى ؟ مصور ؟ شاعر ؟ روائى ؟

فقلت له باسما :

ـ صدقت فراستك . أنا من أولئك النفر الذين خلقوا كى يملأوا الدنيا كذبا وتمويها

فقال الشيخ للفور :

ـ ان أردت الحق فكل رجال الفن فى الكذب سواء. ولكنى أحسب الروائى أطولهم باعا واملأهم جعبة ...

ـ سيما وان كان شرقيا من صلب مؤلفى « الف ليلة وليلة »

فقالت الجميلة وهى تنظر الى باسمة :

ـ يسرنى حقا أن أرى كاتبا من سلالة تلك الفئة العجيبة. ولكنى لا أحب أن تسمى فنك كذبا . ان الكذب المتسق هو أصدق من الصدق . ما الفن الا كذب متسق جميل

فرفعت عينى الى السماء وقلت فى شبه دعاء اسلامى :

ـ اللهم نسق لى كذبى ! ..

فضحكت الجميلة وضحك الشيخ وحتى الالمانية ضحكت

من منظر كفى المرتفعتين الى السماء على نحو لعلها ما رأته الا فى الافلام السينمائية التى تمثل الصحراء والبدو من المسلمين · وكانت الالمانية قد فرغت من تناول الشاى ومحاسبة الغلام ورأت الحديث يدور بالفرنسية التى لا تعرفها فنهضت وحيتنا باشارة من رأسها تحية سريعة وانصرفت الى عربتها وتركتنا نحن الثلاثة فى ضحكنا وابتسامنا وسرورنا · وكان مقعد الالمانية أمام الجميلة وجها لوجه وعن يمينها النافذة البلورية فبادرت وانتقلت الى مقعدها الخالى · وأنا أقول للشيخ :

– وأنت يا سيدى هل كنت معنا فى سالزبورج ؟

– لا مع الاسف · انى قادم من « انسبروخ » حيث كنت طول وقتى أتسلق الجبال ولم أزل كما ترى بثياب التسلق القذرة · انى من قدماء المتسلقين الهواة · لذلك أعترف لك أن الموسيقى التى تهز مثلى هى موسيقى الطبيعة

– هنيئا لك ياسيدى هذه الموسيقى · ومن غير الموهوب يستطيع أن يتذوق « سانفونيات » الطبيعة الصوتية الضوئية فى آن ؟ ما الفن الا سفير بيننا وبين « الطبيعة » يصف لنا « بلاطها » وما فيه من أبهة وبذخ وعجائب وأسرار

فلمعت عينا الجميلة وقالت كأنها تخاطب نفسها :

– الفرق بين الفن والطبيعة فى الرقص ، كالفرق بين « بافلوفا » و « ايزادورا »

فحدقت فيها وقد أخذنى الدهش :

ـ ملاحظتك يا سيدتى غاية فى الصــواب · وان كان علمى بفن الرقص غير غزير ، نعم عند « ايزادورا » الانسان فى الطبيعة شأنه سواء بسواء شـأن الزهــرة فى المروج والشجرة فى الغابة والسنبلة فى حقل الحنطة · له رقصته الطبيعية وله تموجاته المتسقة مع الهواء العابث بشـعره المرسل الطائر · فهو فى غير حاجة الى تقليد «موت البجعة» أو « مشية العصفور »

فقالت :

ـ ولكن الفن مع ذلك هو الجمال المصنوع·ان من فضائلنا نحن الآدميين أننا استطعنا أن نصنع الجمــال فى معاملنا البشرية · ولم نكتف مثل بقية عناصر الطبيعة بأن ننتظم نغما فى نشيدها العام وحركة فى رقصتها الكبرى

فقلت لها على الفور :

ـ أنت تحبين « بافلوفا »

فأجابت باسمة :

ـ وأنت تحب « ايزادورا »

فصاح فينا الشيخ بغتة :

ـ مهلا ، مهلا ·· وأنا أحب من ·· ؟ أتوزعان فيما بينكما « الأحبة » وتتركانى بغير « حبيب » ؟ !

فبرق فى رأسى خاطر وتذكرت من فورى حديث صاحبى الفرنسى عن الراقصة البولونية وأيقنت من كلام الجميلة فى الرقص ومن جمالها « المخيف » أنها ولا ريب هى ···

فأسرعت وأجبت الشيخ باسما وعيناى الى الفاتنة :

ـ أنت تحب « ناتالى » ...

فتلون وجه الفاتنة على نحو أدركت معه أنى فى حضرة الراقصة . والتفت الشيخ الى جارته قائلا فى لباقة وكياسة:

ـ لو أذنت أن أكون من عبادك المعجبين !

فأسرعت قائلا للشيخ فى ضراعة :

ـ مهلا . لاتتركنى.خذنى معك أنا أيضا عبدا من العباد الخاضعين الساجدين !

فضحكت الجميلة ضحكة رقيقة كشفت عن ثغر لؤلؤى أثمن من كنوز سليمان . وقالت :

ـأتحبان الرقص بهذا المقدار ؟ !

فقلت من فورى :

ـ وكيف لانحبه ياسيدتى ، والكون كله رقص ؟ ان المجموعة الشمسية فى دورانها الابدى ليست الا رقصة « باليه » !

فقال الشيخ فى تنهد المشتاق :

ـ كم ترى ثمن الكرسى لمشاهدة هذا « الباليه العلوى »؟

فقلت باسما :

ـ أقل ثمن للحضور فيما أعتقد « حياة » الانسان

فقال الشيخ باسما :

ـ تقصد ولا ريب بأقل ثمن : « أعلى التياترو » !

فضحكت الجميلة وقالت :

ـ ليس الثمن باهظا على أى حال . على شرط أن يسمح لنا برؤية هذا المشهد العجيب !

فقال الشيخ :

ـ اطمئنى يا سيدتى. قلبى يحدثنى أن كراسينا محجوزة مقدما من قبل أن نولد لمشاهدة هذه الحفلة. وكل ما أرجوأن نوضع نحن الثلاثة فى مقاعد متقاربة كما نحن الآن . حتى نتبادل الآراء فيما نشاهد كما نتبادلها الآن ... ينبغى اذن أن نتعارف من الساعة حتى لايضل أحدنا عن الآخر. أتسمحان ؟ ..

وأخرج الشيخ من جيبه محفظة تناول منها بطاقة ، وفعلت عندئذ فعله ، وكذلك فعلت الجميلة وتبادلنا البطاقات . وعلمت أن صاحبى الشيخ من أصحاب المصانع الموسرين فى بخارست . وأن الجميلة هى حقيقة «ناتالى» .. وأردت أن أحيى هذا التعارف بزجاجة من الشمبانيا فناديت الغلام وطلبت اليه ذلك فاعترض الشيخ محتجا فى ظرف أن هذا الواجب من نصيبه ... ثم اتفقنا آخر الامر على أن ندعه يفعل ما يشاء فى العشاء . وجاءت الشمبانيا فى وعائها الفضى محاطة بالثلج . وفض الغلام خاتمها وملأ الكؤوس، وما كدنا نرفعها الى الشفاه حتى دخل صاحبى موريس عربة الأكل ووقع نظره على فى الحال وأنا على هذه الحال، بين جمال باهر وشراب فاخر ، ونعيم ليس بعده نعيم ، فارتسمت على فم الملعون ابتسامة أدركت لوقتى معناها. ولم يمهلنى حتى أتدبر أمرى معه ودنا حتى بلغ مائدتنا فانحنى أمامى باحترام وقال :

ـ سيدى « عدو المرأة » لم يصعق بعد للفور ؟!

ثم اعتدل واستدار ورجع من حيث أتى كأنه كان قد جاء ليلقى هذه الكلمة ويمضى

وبدا الدهش على وجه الجميلة والشيخ وكأن أعينهما تسأل عن معنى ذلك ٠٠٠

ولم أر بدا من الافصاح فقلت :

ـ هذا رجل يرى الا نفع لى، ولا فلاح الا اذا صعقنى حب امرأة !

فصاح الشيخ :

ـ وحق هذا الشراب المقدس ان الرجل قد صدق !

ونظرت الى الجميلة باسمة :

ـ ولكنه قال أيضا انك « عدو المرأة »

فأردت أن أشير بالايجاب فبادرنى الشيخ مقاطعا :

ـ اياك أن تكفر فى حضرة الجمال٠ألست معى من العباد الصالحين الخاضعين ؟!

فقلت فى شيء من التمرد :

ـ انى أحب الجمال وأكره المرأة

فقالت الجميلة فى هدوء وابتسام :

ـ لماذا تكرهها ؟

ـ أأكون صريحا ؟

ـ نعم

ـ لان المرأة ياسيدتى مخلوق ٠٠٠ ماذا أقول ؟ أرجو عفوك ٠ انى كلما تذكرت أثرة المرأة وظلمها ومنطقها الغريب ٠٠٠ اليك يا سيدتى مثلا بسيطا ٠ ما جرى فى تلكالقطعة

الموسيقية التى شهدناها . لقد رأينا « أورفيوس »المسكين فى الفصل الاول يبكى على قبر زوجته «ايروديس» ويستبكى الآلهة بألحانه الحزينة وقيثارته الشجية حتى أذنوا له أخيرا بالبحث عنها فى الجحيم والفردوس ... الى أن وجدها . وأراد الخروج بها الى الدنيا فلم تأب عليه الآلهة ذلك على شرط ألا ينظر الى وجه زوجته « ايروديس » قبل أن يجتازا مملكة الموت والا بقيت زوجته الى الأبد فى مملكة « بلوتون » وتذكرين يا سيدتى بعدئذ كيف أن تلك المرأة قد نسيت كل ما فعل زوجها من أجلها وانها عاتبته مر العتاب لأنه « فقط » لم ينظر الى وجهها . وما زالت به حتى أنسته وعده ونظر اليها فسقطت لوقتها وعادت روحها الى مملكة الظلام فبكى الرجل من جديد واستبكى الى آخر القصة... ولو كنت فى مكانه لتركتها هذه المرة وشأنها ..

فسددت الى الجميلة نظرة فاترة ألقت الاضطراب فى « جهاز » عقلى . وقالت فى نبرة عذبة أتت على البقية الباقية منى ...

ــ ما أقسى حكمك !

فقلت كمن يتقى سلاحا مصوبا :

ــ بالله لا تسلطى علينا الجمال يا سيدتى . انه فى أيديكن كالمخالب فى أيدى القطة . تبرزنه وقت اللزوم . من أجل هذا أكره .. المرأة ..

وكأن الشيخ لم يطق سكوتا فقال فى صوت المتوسل :

ــ لا تكره المرأة يا سيدى العزيز . ان المرأة الجميلة

كالزهرة النضرة ، كل شيء فيها جميل حتى شوكها ، ان الجمال لا يتجزأ ٠ انه الجمال وكفى ٠ ان الجمال هو فضيلة المرأة ، بل هو الفضيلة وكفى

فأجبت الشيخ فى صوت المغلوب على أمره :

ـ لقد خنتنى ياسيدى ، وفتتفى عضدى،وخذلتجنسنا وظاهرت الجنس الذى يقال انه لطيف وهو فى غير حاجة الى دفاع ، ان المرأة لا تدافع ، انها تهاجم وتصعق ، آه من الجمال ، المرأة الجميلة هى القوة وكفى ، هى الصاعقة وكفى

وأخرجت منديلى كأنى أريد أن أجفف عرق الاندحار ٠٠ فضحكت الجميلة وقالت :

ـ لا يبدو عليك مطلقا أنك صعقت

ـ وماذا تريدين ياسيدتى أن يبدو على ؟

ـ لست أدرى ٠٠ لكن ٠٠

ـ لا أكتمك يا سيدتى ان فى رأسى « مانعة » للصواعق، كتلك القطعة من الحديد التى توضع فى رؤوس البيوتهو مبدأ قد رسخ فى ذهنى : ان حريتى أثمن عندى من روحى ، وان المرأة وحدها هى أخطر عدو يهدد هذه الحرية ٠ فالمرأة يا سيدتى هى السجان الدائم لنا نحن الرجال : نتخبط بين جدران بطنها ونحن أجنة ، نطعم ماتريد هى أن تطعمنا اياه٠ فاذا خرجنا من بين تلك الجدران المظلمة الى الحياة المضيئة الرحبة وقعنا بين سياج حجرها ، تغذىأفهامنا بما تريد هى أن تلقننا اياه ٠ فاذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلقتنا أغلال

ذراعيها فطوقت أعناقنا حتى الممات ، فمتى الخلاص منهـــا ومتى الحرية ؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لها فعل الكهرباء :

ـ ألم أقل لك انك لم تصعق !

فصاح بى الشيخ :

ـ سيدى العزيز،سيدى العزيز،أتوسل اليك فى خضوع أن تخرج من رأسك تلك « الحديدة » !

فتنهدت وقلت :

ـ وما حظك من أن تعرضنى للخطر ؟ يا الهى اشهد ! لقد اصطلحت على الاسباب هذه الليلة لاضـــاعتى ٠ ان « الحديدة » ياسيدى قد صهرت ٠ ومتى كانت صاعقة الجمال يردها حديد أو خشب ؟ انى قد صعقت ، انى قد صعقت ، انى قد صعقت ، أما تزال سيدتى مصرة على أن هذا لايبدو على ؟ !

فأجابت الجميلة فى ضحكة رقيقة :

ـ داؤك غير خطير

وكان القطار قد مر ببحيرات زوريخ الرائعة فنظرنا كلنا الى تلك الجبال الشاهقة الخضراء كأنها مردة عمالقة فى ابراد حضرمية يلعب تحتها الماء الازرق الهادىء كأنه يداعب أقدامها العارية ، وغمرنا الشعر المحيط بنا فأنسانا أنفسنا ٠ فلم نفق الا على حركة الغلام وهو يرفع عن مائدتنـــا الاطباق والاكواب فالتفتنا فاذا عربة الاكل قد خلت من الركاب ولم يبق غيرنا وقد مضت ساعة الشاى منذ وقت ليس بالقصير

دون أن نحس مرها • وبدأ السقاة والغلمان يهيئون الموائد تأهبا للعشاء • فنهضت الجميلة فى الحال فى خفة العصفور اذ يقفز من غصن الى غصن ، واستأذنت فى العــودة الى مقصورتها ووعدت باللقاء عند العشاء تلبية لرجاء الشيخ • وذهبت عنا كأنها الشمس التى غابت وقتئذ خلف الوديان فتركنا فى ظلامين • ولبثت أنا والشيخ صامتين مطرقين كأننا نخشى الافاقة من سحر تلك اللحظة • غير أنى تكلمت على الرغم منى فى صوت ضعيف كأنى أخاطب نفسى :

ـ دائى غير خطير !

وسمع الشيخ منى وفطن لى فالتفت الى قائلا :

ـ أوقعت ؟

فخرج من فمى الجواب دون أن أشعر :

ـ نعم

وانتبهت لنفسى فرأيت الشـــيخ يحدق فى وجهى • فاستهولت الامر وسرت فى جسمى رعدة وخشيت على نفسى • واذا الشيخ يقول فى صوت هادىء مطمئن :

ـ اعتمد على !

ـ أعتمد عليك فى ماذا ؟!

فنهض ومد الى يده وصافحنى ضاغطا على يدى وهو يقول فى صوت حار :

ـ انى افهمك وكفى . الى الملتقى فى العشاء

ومضى فى حركته النشطة وانا انظر اليــه ولا أدرى ما أفعل ولا ما أقول حتى غادر عربة الاكل واختفى عن عينى

وثبت الى رشدى ورأيت نفسى وحيدا فى المكان بين الطهاة والسقاة فانصرفت الى مقصورتى وأنا شارد الفكر ضائع اللب ...

□

جلست فى مقعدى صامتا دون أن ألقى نظرة على موريس، ولا أذكر ماذا كان يصنع وقتئذ ، لعله كان يراجع أو يتظاهر بمراجعة فصله ، ورأيت نفسى فى حاجة الى أن أخفى عنه أمرى . فتناولت كتابى وفتحته حيثما اتفق ودسست وجهى فيه . ومضيت لحظة لم أع فيها ماحولى . فقد غاصت نفسى فى القرارة السحيقة من نفسى كما تغوص القوقعة فى أعماق صدفتها ، واذا بى أسمع همهمة كأن أحدا يغالب الضحك ولا يستطيع كتمانه . فرفعت عينا حريصة مستطلعة خارج الكتاب فرأيت الخبيث موريس يهتز كالمرجل بالضحك المحبوس . فقلت له فى هدوء مصطنع دون أن أبسم :

ـ اعط نفسك راحتها ، وأفرغ هذا الوعاء الممتلىء هذرا وسخفا !

فما توانى ، وفتح عقيرته بقهقهة صريحة وهو يقول :

ـ شتان بين وجهك الذى ذهبت به ووجهك الذى تعود به الآن !

فقلت فى فتور وبرود :

ـ ما الفرق ؟ أذهبت حليقا وعدت بلحية بيضاء ؟

ـ بل ذهبت هادىء البال وعدت مسلوب البلبال

فلم أطق صبرا :

ـ نعم ، كي ترضى وتطمئن ، هذا ما كنت تتمناه من صميم فؤادك ٠ ما زلت بى حتى طرحتنى أرضا ٠ لكننى أقسم بشرفك ثلاثا ٠٠

ـ كفى قسما بشرفى ، أقسم بشرفك أنت مرة واحدة !

ولم أر فائدة من الكلام مع موريس ولم أجد فى نفسى ميلا الى الجدل والحديث ، فغادرت المكان وخرجت الى الممر يشيعنى الفرنسى بضحكات مرحة فرحة وهو يفرك يديه سرورا وجذلا كأنما الحال والاعمال سائرة على خير مايرام٠ أو كأنما يرقص فى جيبه « شيك » سخى الارقام٠وابتعدت عن مقصورتنا ، وأسندت جبينى الى زجاج نافذة من نوافذ الممر وجعلت أفكر فيما حدث ٠ انه الجنون ٠ أى مطمع لى فى هذه الراقصة الفاتنة ، انها على مقدار من التواضع ونبل الخلق فيما أرى ، لكنها متى هبطت باريس أحاط بها الفنانون والظرفاء والاثرياء ٠ وبعد ، فماذا أريد منها على وجه التحقيق ؟ هذه مسألة ينبغى أن ألقى عليها الضوء فى أنحاء نفسى وألا أتركها مبهمة غامضة ٠ ماحقيقة شعورى نحوها أولا ؟ كلا ٠ هذا سؤال يدل على الحمق ٠ ان كان الامر متوقفا على الشعور فانى الآن أحس أنى لا أرى فى الحياة عسلا ولا وهجا الا فى عينى هذه المرأة ٠٠

ترى ما مذهبها فى الرقص ، وبكم أبتاع ليلة ترقص لى فيها وحدى بين جدران أربعة ؟! ان المرأة سجاننا الدائم !

اللهم انى مغفل!اللهم انى أقبل السجن المؤبد مع هذه المرأة بين جدران لاتهدم وفى أغلال لاتحطم ! ان الحياة خارج مثل هذا السجن هى السجن . لكن .. معذرة ..هذا كلام فتى فى العشرين ، وأنا اليوم لست فى العشرين ولا فى الثلاثين. وليست هــذه المرة الاولى التى .. آه للقلب ! انه لايعرف غير لغــة واحــدة . انه اذا استيقظ غنى عــين الانشودة بألفاظها وأنغامها غير حافل بصغر أو بكبر، كأنه «اسطوانة» غناء اذا مستها الابرة صاحت بما كانت تصيح به فى كل حين . وأنا الذى كان يحسب ان اســطوانة قلبه قد غيرت أنشودتها . مستحيل . ان الصوت قد يفعل فيه القــدم فيضعف ويبهت ، ولكن الاغنية هى دائما الاغنية ..

كل ذلك صحيح ، ولكن هذا العقل الساكت أما ينبغى له أن يتكلم ؟ أيها الربان المحترم الذى يدير هذه السفينة الثملة، ما بالك قد انزويت فى «قمرتك» ؟ كأنى بك تحتسى أنت أيضا كؤوسا من « الشمبانيا » تاركا السفين يلعب فى يد المقادير . أريد منك الجواب عن سؤال واحد : ماذا تريد أو ماذا ينبغى لنا أن نريد من هذه الجميلة ؟ لست تدرى ؟ هذا لا يدخل فى دائرة عملك ؟ واعجباه ! ان العقل أيضا قد ثمل . هنالك صوت داخلى مع ذلك يهتف بى ألا أحاول شيئا وألا أطمع فى شيء، وأن أمكث فى مكانى لا أذهب الى العشاء . نعم لا يجب أن أذهب لمقابلتها فى العشاء ، اذ .. ما الفائدة ؟..

ودوى فى العربات رنين الصينية النحاسية فلم أتحرك

من موقفى،على أن رفضى رؤيتها على هذه الصورة أمر لم يتم
لى الا بعد حركة قمع دامية قمت بها داخل النفس المتمردة،
لقد أقنعت نفسى أن الانتصارالحقيقى هو دائمافى كلمة «لا»

لقد انتصرت اذ لم أذهب حيث كانت تنتظرنى . لكن
عفوا . من قال انها تنتظر ؟ ما هذه الالفاظ التى نسبغها
أحيانا على مواقف عادية هى غاية فى البساطة ؟ وما هذا
الانتصار المزعوم ؟ وعلى من تراه وقع ؟ عليها هى ؟ أغلب
ظنى أنها لاتشعر به ولا بى . أما ان كان على نفسى فنعم .
وانتصارى على نفسى ماقيمته ؟ على الاقل فيما نحن فيه
الآن ... آه .. من هذا الانتصار فى الهزيمة ! هذا
الذى لايعرف غيره الأدباء المساكين ! وطفقت أنسج على هذا
المنوال خيوطا واهية من الخواطر لانفع فيها الا اضاعةالموعد
على . ومضت ساعة فيما يخيل الى.وأنا جامد فى موضعى،
ولم أفق الا على صوت خلفى يهتف باسمى فالتفت فاذا
الشيخ يشتد نحوى صائحا بى :

ـلقد قلبت القطار ...

ـ قلبت القطار ؟ هذا القطار الذى نحن فيه ؟

ـ بحثنا عنك . أين كنت ؟ ولماذا لم تظهر ساعة العشاء؟

ـ آه . انى آسف حقا كل الاسف اذ حرمت نفسى ..
لكن ..

ـ لا بأس . انى أفهمك

قالها الشيخ فى نبرة الواثق وصوت المجرب المعانى
وخامرتنى الرغبة فى أن أستزيده ايضاحا وأن أعرف على

أى وجه قد فهمنى • غير انه عاجلنى قائلا :

ـ ان غيبتـك قد أقنعت الجميـلة بأن داءك على شىء من الخطر

ـ دائى ••

ورفعت يدى أجس صـدرى وقلبى وكبـدى ، وقد كاد يدخلنى اليقين أن قد نزل بى مرض حقيقى ، ومضى الشيخ يقول وهو يهش لى :

ـ اطمئن • لقد استنزلنا عليك عطفها

ـ ماذا أسمع منك ؟ مـد الله فى عمرك وأطال لنا بقاءك ولا عدمناك نصيرا للبائسين ، ولكن بحق شرفك عندى ، الا ما أخبرتنى وزدتنى ، متى كان ذلك وكيف ؟• متعك الله بالصحة والشباب والنشاط ••

وأخذتنى نوبة عصبية من الفرح فاستنزلت على الشيخ كل مافى السماوات من خيرات وما فى الجعبة من دعوات • فاقترب منى باسما وهمس فى أذنى وهو يغمز بعينيه :

ـ هى لك •••!

فتجهم فى الحال وجهى ورميت الرجل بنظرة قاسية :

ـ لاتمزح ياشيخ

فابتسم الرجل وقال :

ـ انك لاتصدق • ويحق لك ألا تصدق • فهـذه المرأة على جانب كبير من الخلق والثقافة والذكاء،وليس مابها خفة ولا تبذل ولا حاجة الى مال وانما هو حب اسـتطلاع فيما أرى • وقد خدمك الحظ الليلة وربما كان لشخصى الضعيف

أثر فى تمهيد الطريق وفرشـه بتلك الزهور التى ابيض شعرنا هذا فى اصطناعها لمثل هذه اللحظات . لقد تكلمنا عنك طـول الوقت . وعلمت أنها فى باريس سـتنزل فى فندق « ادوارد السابع » وانه قد حجز لها فيـه حجرتان وحمام . وقد استكثرت أنا عليها الحجرتين واسـتأذنتها فى أن تنزل لك عن حجرة ..

فمـا تمالكت أن صحت وانا أهتز كالقصبـة من التأثر والاضطراب والفرح والاعجاب :

ـ أقسم لك بشرفك ياسيدى انك أبرع من رأيت على وجه البسيطة، بل أقسم بشرفك ثلاثا انك ملك ارسل الى من السماء وهل من الضرورى أن أرى لك أجنحة حتى أصدق انك ملك من ملائكة السماء !

فمضى الشيخ يقول دون أن يحفل بقسمى وحماستى :

ـ ولقد قبلت آخر الامر بعد الحاح . فهأنت ذا معها منذ الغد فى جناح من الفندق لايفصل بينكما ..

فأسرعت وقاطعته وقد بدا لى ما أزعجنى :

ـ لكن اصغ الى ياسيدى . أتعرف « كليوباترا » وذلك « العبد » الذى أعطته ليلة من لياليها وفى الصباح قتلتـه ؟ أتعرف « سميراميس » وذلك « الاسير » الذى منحته نفسها فى الليل وعند الفجر أسلمته الى الجلاد ؟ أهى تريد بى هذا المصير ؟

فقال الرجل :

ـ دعنا من الجلاد والعبيد ، وهذا الكلام الذى تملأون به

القصص . ان كل ما أعرف الآن أن هذه الجميلة قد أمست طوع بنانك !

ـ بنانى . اللهم لطفا بعقلى .. اللهم ..

وانحبس الكلام فى حلقى ولم أر ما أفعل فارتميت على حذاء الشيخ فأسرع وأمسك بذراعى صائحا :

ـ ماذا تصنع ؟

ـ أقبل قدميك

ـ هـذا تفعله اذا كنت تبصر على رأسى تاجا من الورق المقوى ، أو كنت تحسبنى ملكا من ملوك المسارح . انهض يا ... « عدو المرأة » . حسبى اغتباطا أنى أصلحت بينك وبينها وما تركتـك حتى يسرت لك الامـور ونظمت لك الشؤون . وان طلبت معونتى بعد ذلك فى أى وقت فانك تجدنى فى «جراند أوتيل » بميدان الاوبرا حيث يحجزون لى دائما حجرتى اذ أقيم فى باريس . والآن وقد وضـعت يدك فى يد امرأة جميلة فانى أسـتأذنك فى الانصراف . وليلة هانئة .والى اللقاء !!

وتركنى الرجل ومضى . وانا كمن ذهب لبه وغاب وعيه لا أعرف بعد أن كنت فى قطار يجرى بى على الارض أو فى منطاد يرقى بى الى السماء ...

وكان كل همى وقد دخل القطار «بايس» ان أدبر طريقة الهرب من موريس . لكن ... كيف الهـرب وحقائبى بين حقائبه . وهو لا ريب شاعر بى اذا أبديت حركة . فلنكن شرفاء . ولنخبره من مبدأ الامر بما خامر النفس وانطوى

عليه العزم · وأردت أن أفاتحه، فوجدته فى النافذة مستقبلا باريس كمن يلقى حبيبا بعد طول فراق · وقد أنساه الشوق والحنين نفسه ومن حوله ، فجعل يصفر بفمه أغنية الراقصة « مستنجيت » :

باريس غادة شقراء
باريس ملكة الدنيا !

فانتهزت الفرصة ، وغافلته مادا يدى الى حقائبى ، أستخلصها من بين الامتعة وأخرجها الى الممر، وأضعها بعيدا عن المقصورة ، قريبا من باب العربة · وفرغت من ذلك كله دون أن يتنبه الى · ففرحت · وحمدت الله ، ولم يبق الا أن أضع قبعتى وأحمل معطفى وعصاى · ففعلت ، وما كدت أهم بمغادرة المكان ، حتى التفت الى هذا اللعين قائلا:

ـ ماذا تصنع ؟

فانخلع قلبى ، وأسقط فى يدى · ولم أر بدا من الكلام · فقلت :

ـ أهرب منك

فقال فى نبرة ساخرة :

ـ وهل نجحت ؟

فملأتنى هذه العبارة غيظا ، وذكرت كل ذلك الجهد الذى ذهب سدى · غير أنى تمسكت بالصبر واصطنعت الحلم ، وقلت له :

ـ اصغ الى أيها الصديق !

فقال باسما :

ـ ها أنذا مصغ

ـ انك تتمنى لى الخير ؟

ـ طبعا

ـ والهناء ؟

ـ طبعا ، طبعا

ـ هنالك طريقة واحدة أنال بها ماتتمنى

ـ ماهى ؟

ـ هى أن تعود فتدير وجهك نحو النافذة ، وتصفر بفمك أغنية « مستنجيت » ، وتجعل كأنك لم تر شيئا ولم تتنبه الى شىء !

ـ وعنوانك ؟

ـ يحفظ بشباك البوستة العمومية

فلم يتردد ٠ وأسرع فاستقبل النافذة ٠ وهو يغمز لى بطرف عينيه ان : « رح ، لست أرى شيئا ولا أتنبه الى شىء ! » ٠ وطفق يصفر :

باريس غادة شقراء
باريس ملكة الدنيا !
عيناك تبتسم
دائما ٠٠٠٠٠٠
كل من عرفك
وثمل من لطفك

يذهب عنـــــك
ليعود اليـــــك
دائمـــا ٠٠٠٠٠٠٠

سرت الى جانب الجميلة على افريز المحطة فى طريقنا الى باب الخروج ، وقد تغيرت فى عينى مظاهر الاشياء وقدأمسى لكل شيء معنى آخر فوق معنـــاه ٠ ومررنا بالقطار الذى كنا فيه ، وهو واقف ، يتصاعد من عجلاته البخار ، ويقطر من جوانبه الماء والغبار ٠فقلت :

ـ هذا «البراق» الذى ركبناه واقف يلهث تعبا ويتصبب عرقا !

فقالت الجميلة :

ـ منذا يقول ان مثل هذا الشيء القبيح قد استطاع أن يقود نا خلال أبهى المناظر ، وأن يعرض على أبصارنا أجمل حلى الطبيعة وأبدع كنوز الخليقة !

فقلت لها :

ـ انه مثل الشاعر ، بل مثل الفنان : زرى الهيئـــة أحيانا ولكنه هو المنوط بقيادة البشر خلال مروج الحسن، وفراديس الجمال ! من أجل ذلك ياسيدتى ، لا أنصح كثيرا للناس أن يتأملوا الفنان من الخارج كما نتأمل نحن الآن هذا القطار ، فانهم لن يروا عليه سوى آثار التعب والغبار !

فالتفتت الجميلة فجأة ونظرت الى وجهى مليـا وقالت باسمة :

– نعم ، أرى ذقنك لم تحلق كما ينبغى !

فخجلت وأردت أن أبدى السبب • لو أن هنالك سببا ، لكنى رأيت مندوب فندق « ادوارد السابع » يقبل نحونا ويرفع قبعته ذات الرقعة النحاسية • وقد بدا لى انه عرف نزيلته المعتادة ، وعرف حقائبها مع الحمالين ، فمشى فى أثرهم • وخامرنى أنا قلق نغص على ما أنا فيه • وجعلت أفكر فى أمر هذا الفندق الكبير : فندق « ادوارد السابع » ببابه الدائر كأنه ساقية آدمية • لاينقطع له دوران • يقذف الى بهوه القادمين ويلفظ الى افريزه الراحلين ، وقد وقف عليه فى ملابس ال « جروم » غلامان ضخما الجسم أحمرا الوجه كأنهما ثوران ، يحملان المظلات ويهرعان لاستقبال السيارات • كلا • لن يغمض لى جفن فى مثل هذا الفندق • ولقد كنت دبرت من قبل أمر مسكنى الذى يستطيع مثلى أن يعيش فيه . فنظرت الى الجميلة بجانبى •

– أين ننزل ؟

– يدهشنى انك لاتعرف

– « ادوارد السابع »؟؟ ••• انى لا أحب النزول فى فنادق الملوك

فالتفتت الى مازحة باسمة :

– شيوعى ؟؟

– لست كذلك بالضبط • ولكنى رجل تعوزه الشجاعة أن يحيا طويلا فى غمار أولئك الذين خلقوا ليرتدوا ثياب

السهرة فى كل ليلة ويقفوا على مائدة « الروليت » ، ويغرقوا فى مقاعد بهو الفندق الفخم يدخنون « الهافانا » ويتحدثون عن سباق « لونشان» ٠ لقد غلطت ياسيدتىمرة فى سالزبورج اذ نزلت فى فندق « أوروبا» العظيم فهربت فى اليوم التالى ٠٠ وجعلت أبحث عن بغيتى حتى وجدتها فى فندق « شتين » المطل على النهر ، المطلى باللون الاحمر القانى ، لون « الطاحونة الحمراء » التى كانت يوما صدر مونمارتر الزاخر بعاطر الهواء ٠ آه ! لكم وقفت الليالىتحت تلك الطاحونة الحمراء أتأمل مراوحها المضيئة وهى تدور٠ فما أتمالك أن أصيح : تلك رئتاك يامونمارتر ! انك لاتتنفسين الا ليلا ٠٠ وما أشعر عندئذ الا وأحد الحمالين كاد يصدمنى بعربة عليها أثقال يدفعها بيده ٠٠ فجذبتنى الجميلة من ذراعى جذبة أنقذتنى وقالت فى خبث ظريف :

ـ كاد الشعر يضيعك فأنقذتك امرأة !

ـ انى مدين لك بحياتى !

قلتها فى بساطة غير المؤمن بما يقول ، وفى ابتسامة المجامل وفى سرعة من لم يجد غير ذلك ردا ، واقتربنا من الباب الكبير وقد اصطفت السياراتفالتفتت الى ثانيا قائلة:

ـ اذن لن تأتى معى الى « ادوارد السابع » ؟

ـ ومن قال انك ستذهبين الى « ادوارد السابع » ؟

فنظرت الى بعينين واسعتين من العجب :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أن أهـل الفن أمثالنا لايحسن بهم اذا هبطوا باريس أن يحيوا حيـاة تجار الحـديد وأصـحاب مصـانع الكبريت ! ان الفنـادق ليست لنا بمنـازل • انى أعرف ذوقك، أنت لاغنى لك عن صور جميلة و « كروكى » بارعة و « اسكيس » غريبة تزين مخـدعك ، أنت لاغنى لك عن مكان رحب تطلقين فيه كل صباح خطواتك الصادحة •أنت لاغنى لك عن ضـوء غزير يشع من جدران بلورية • أنت لاغنى لك عن أزهار وأطيار ، و ••

ـ ماهذا الوحى الذى هبط عليك فى المحطة !

ـ انه يهبط على حيثما أنت معى • وهل أنت الا هو !

وأسرعت فأشرت الى سيارة «تاكسى» • انطلقت بنا فى طرفة عين تجوب شوارع باريس • وقد تملك كلانا وجوم الحنين الى هذه المدينة العزيزة فما انتبهنا الا على صـــوت السائق يستدير الينا سائلا عن الجهـة التى اليها نقصـد فبادرت مجيبا :

ـ مونبارناس • شارع « دى لامبر »

فصاحت بى الجميلة :

ـ ماهذا ؟

ـ هذا ياسيدتى المكان الذى ينبغى أن توضعى فيه داخل اطار فوق « شفاليه » كما توضع صور مثيلاتك من الحسان الخالدات !

ـ انك تتصرف فى حياتى على نحو غريب !

– اسمحى أن يكون لى هذا الشرف مرة فى حياتى

ومر برأسى تلك اللحظة خاطر فنظرت من نافذة السيارة الخلفية الصغيرة فلم أجـد أحـدا يتبع أثرى • فعلمت أن الماكر موريس قد ارعوى وانصرف الى شأنه

والتفت الى الجميلة فأبصرت التردد والتجهـــم قد بدآ يظهران فى شبه خطوط رفيعة فوق جبينها الفضى • فرأيت أن أشغلها بالحديث قبل أن ينبتفى رأسها عزم يسيئنى • وكنا قد مررنا « باللوفر » ونحن نعبر الســين الى الضفة اليسرى على قنطرة « بون رويال » فأشرت اليه وقلت لها :

– ههنا امرأة لها مثل عينيك

فألقت الى نظرة تنم عن فكر شـارد ولكن فيها مع ذلك معنى الاستفهام فمضيت فى الكلام :

– هى « لو كريزيا كربفيللى »

فأقبلت على فى انتباه وقد انفرجت أسـاريرها وتفتح ثغرها تفتح الزهرة بالابتسام وقالت :

– أهى لم تزل على الحائط الايسر فى القاعة المستطيلة !

– بارك الله فى ذاكرتك ! أعترف لك فى خجل أن مسألة الحيطان هذه أكبر من أن يسعها رأسى الضعيف !

– لماذا ؟ ان صور « ليوناردو » كلها فيما أظن على الحائط الايسر ! أتذكر معى : « اله الخمر » والقديس « يوحنا » و « الجوكندا » و ...

وجعلت تستعرض تلك اللوحات وأنا مشغول منهوب • أرنو الى حركة شفتيها وهى تلفظ أسماءها فى نطق ايطالى لذيذ • وقد فطنت لنفسى حتى لاتفاجىء هذا الرنو الذى قد يكشف عن أشياء يخفيها قناع من البساطة والمرح ••

ودخلت السيارة شـارع «دى لامبر» ووقفت على باب كبير ، فانتبهت الجميلة ونظرت الى ، فلم أبادلهـا النظر ، وأسرعت بفتح باب العربة ونزلت ومـددت يدى الى يدها أعينها على النزول • ثم دفعت الى السائق أجره

وقرعت جرس المنزل فخرجت حارسة الباب•فما رأتنى حتى عرفتنى وحيتنى أحسن تحية • والتفتت الى الجميلة وانحنت لها وهى تهمس : « مدام » • ثم عادت موجهة الى الكلام قائلة انهـا قد تسلمت برقيتى وأعدت المسكن خير اعداد ، ووضعت النار فى المدفأة الكبيرة

وأشـارت الينا أن : تقدما • وبادرت هى الى الامتعـة فأنزلتها الى الارض وحملت منها ما استطاعت حمله وتبعتنا به • وسرت أنا والجميلة الى المصعـد وارتفعنـا الى الطابق الخامس ، ثم مشينا الى باب على اليمين وأخرجت من جيبى مفتاحا صغيرا فتحته به • وأشرت الى الجميلة أن : تفضـلى فدخلت فى شبه دهليز فى صدره ستارة وفى جانبيه أبواب صغيرة • فنظرت مستطلعة من خلال الابواب المفتوحة فاذا على اليسار قاعة للاكل بسيطة صغيرة منخفضـة السقف • واذا على اليمين مطبخ صغير مجهز بالآنية النظيفة اللامعـة

وأدوات الطهى والشواء فوق فرن صغير توقد ناره من غار يجرى فى أنابيب • ثم سلم صغير حلزونى الشكل يوصل الى شبه طابق آخر فيه حجرة النوم والحمام • واقتحمت الستار • فاذا هى فى قاعة هائلة طولها طول المسكن كله وارتفاعها ارتفاعه كله • جـدارها الطويل من البلور ترى منه الشمس اذا طلعت وبرج ايفل اذا صفت السماء • وقد انتحى الموقد الكبير ركنا مهملا من أركان تلك القـــاعة يكتنز النار فى قلبه كأنه عاشق مهجور : وفى ركن آخر مكتب كبير عليــه كتب وأوراق وحــوله فرش وثيرة فوق سجاجيد ألقى عليها جلد دب أبيض ووسائد منثورة • وفى الوسط قام « شفاليه » من خشب الجوز يحمل « لوحة » زيتية من عمل المصور النرويجى « أوتو » الذى كان يقطن هذا المكان ، تمثل عروس الرقص « تربسيكور » تمثيلا غريبا لاعلاقــة له قط بلوحــة « شوتزنبرجر » الشهــيرة المعروضة فى متحف اللوكسمبورج

ألقت الجميلة نظرها على هذا كله وهمست كالمخاطبــة لنفسها :

– « ستوديو » ؟!

– نعم ههنا ينبغى أن نعيش

ودخلت حارسة الباب بالامتعة ووضعتها فى الدهليز ثم سألتنا عما اذا كنا نطلب شيئا،فأجبتها بالسلب فانصرفت وأغلقت خلفها الباب ، وأشرت أنا الى حجرة النوم ونوافذها

الصغيرة التى تشرف على القاعة وقلت للفاتنة :

ـ تلك حجرتك · اسمحى لى أن أصعد أمتعتك اليها

وتركتها فى الحال · وصعدت السلم الحلزونى حاملا حقيبتها · ثم عدت الى جانبها وقد دنت من أصص أزهار الميموزا والهورتنسيا على الجدار الزجاجى ، وابتسمت لالوانها ثم التفتت الى :

ـ صدقت · ههنا كل شىء جميل · لكن ···

ورفعت عينيها فى شىء من التردد والحيرة الى حجرةالنوم الوحيدة :

ـ لا أستطيع مع الاسف أن أقبل ضيافتك ، لقد كنت أحسب أن لديك ··

فأدركت مرمى قولها وسارعت قائلا :

ـ اطمئنى ! هذه الحجرة لك وحدك لا شريك لك فيها

ـ وأنت ؟

ـ انى سأرقد على هذا الفراش فى هذه القاعة

ـ الى الحق أن أغتصب حجرة نومك والقى الفوضى فى نظام حياتك ؟!

ـ ان الفوضى هى نفسها نظام حياتى · وانت التى لها الحق أن تغتصب قلبى ، أفلا يكون لها الحق أن تغتصب حجرتى ؟!

فضحكت وقالت :

– أصبت • هذا منطق لا بأس به

واستأذنت فى الذهاب الى حجرتها لبعض شأنها ولبثت أنا فى مكانى قليلا • وبدا لى أن أفرغ أنا أيضا حقائبى • وأن أهيىء أمرى فى تلك القاعة ••

▭

ومضت ساعة وكلانا غارق فى شؤونه التافهة • وقد أخرجت ملابسى ودسستها فى خزانة بالحائط معدة لحفظ اصباغ التصوير وريشه : والقيت بكتبى التى ابتعتها حديثا على « رف » فوق الفراش • ورميت على رأس الدب خفى الاصفر الذى كنت شريته من خان الخليلى بالقاهرة • وقذفت على الوسائد ذات الرسوم الحديثة بعباءتى « الألاجا » الزرقاء • ووضعت « الجراموفون » الذى لا يفارقنى فوق مائدة صغيرة من موائد المعمل • ثم خلعت نعلى وبعض ما على من ثياب وذهبت الى المطبخ فغسلت وجهى ورأسى فيه اذ لم أشأ استعمال حمامها ، وعدت فجعلت « البلغة » فى قدمى وارتديت العباءة • ووخزت بالابرة صدر الجراموفون فانطلقت (رقصة الازهار) للموسيقى (تشايكوفسكى) تتماوج أنغامها فى المكان وتحيط بصورة (تربسيكور) وتكاد تخرجها من الاطار راقصة رقصتها الالهية ، وكأنى بالاصص تهتز فوق الجدار ، وكأنى بالميموزا تراقص الهورتنسيا •• واذا الجميلة تبدو فى نافذة حجرتها المطلة على القاعة وهى فى (روب دى شامبر) من الحرير قرمزى

اللون موشى بخيوط من ذهب فى لون عينيهـا • واذا هى تتمايل لوقع الموسـيقى فى لطف ورقة ، فخيل الى أنهـا فراشة جميلة فرت من الجنة أو من حديقة علوية لاوجـود لها الا فى مملكة الخيال ، أو أنها هى (تربسيكور) نفسها انطلقت من الاطار ووقفت بالنافذة ، فالتفت الى (الشفاليه) فاذا الصورة أقل شأنا منها فى ابراز روح الرقص • واذا هذا التمايل الخفيف اللطيف كأنه تمايل السنبلة أوالزهرة تحت النسيم ، انما هو شيء لايقع الا من «عروس الرقص» نفسها ! فوجمت لحظة • ورنوت اليها مأخوذا• ثم لمأتمالك أن صحت بها :

ـ تربسيكور !

فلم تجبنى • ولم يبد عليهـا أنها فطنت لصيحتى حتى سكت الجراموفون • فانتبهت لنفسها ولى • وهمست :

ـ حقيقة ،هذا «الباليه» منأجمل ماكتب «تشايكوفسكى»

واختفت من النافذة • ثم لم ألبث أنرأيت يدها الصغيرة البيضاء تزيح الستار قليلا • واذا هى فى القاعة تقبل على فى خطى رشيقة • وما وقعت عيناها على هيئتى بعباءتى حتى اتسعت حدقتاها وقالت فى دهشة :

ـ عجبا ! كأنى فى حضرة هرون الرشيد !

فأجبتها باسما :

ـ أتأذنين لهرون الرشيد أن يلثم يدك ؟

فمدت الى يدها فوضـعتها على شفتى فى خشـوع • ثم

أجلستها على مقعد وثير فى صدر المكان٠وجلست بين يديها على وسادة فوق الارض جلسة تشبه الركوع٠ورفعت عينى الى هذا التكوين البديع ٠ ولم أجد ما أقول ولا ما أصنع ٠ وهل نقول شيئا أو نصنع شيئا اذ نتأمل آيات « اللوفر » وروائع « السكستين » !

– لماذا تنظر الى هكذا ؟

– لست أدرى

والواقع أنى لست أدرى٠ أتراها أبصرت فى مرآة عينى أشياء خفية لم تطف بعد على وجه نفسى الواعية ؟ انى حتى الساعة لا أعترف فى دخيلة قلبى أن للحب شأنا فيما نحن فيه ٠ فهى ولا ريب لم يكن ينقصها أن تلقى فى حياتها مثلى حتى تعرف ماهو الحب ٠ وانا لاحاجة بى الى التجرع من كأسه مرة أخرى . فليكن لقاؤنا صافيا جميلا . فالويل لمن يقع منا الآن فى الحب !

وأرادت أن تقطع الصمت ، فمالت بجسمها ومدت يدها تطلب كتابا أبصرته فوق المكتب ٠ فدنا رأسها منى وقد انحدرت خصلة من الشعر فوق عينيها ، وشممت عطر « الاوبيجان » فى هذا الرأس الجميل أحسن مايكون هذا العطر وكأنه مزج بأريجها هى ٠ فأحسست شيئا يصعد الى رأسى الهادىء ويلقى فيه جمرة ٠ ولعلها رأت احمرار وجهى وجمود موقفى ٠ فقالت باسمة :

– فيك شىء الساعة يشبه الفتى الذى لم يبلغ العشرين!

فانتبهت لعبارتها وقلت على الفور كالمخاطب لنفسى :

ـ أرأيت ذلك ؟!

فلم تجب . وسددت الى نظرة رائشة بأهداب من حرير:

ـ هل أنت أحببتنى !

فأسرعت كالمرتاع :

ـ لاتقولى ذلك !

فضحكت لروعى ضحكة رقيقة وقالت :

ـ انك تخشى الحب كمن يخشى الموت !

ـ نعم

قلتها فى صوت خافت وانا مطرق . ولم أزد . ومضت تقول دون أن ترفع نظرتها المصوبة ، وقد اتخذ صوتها على عذوبته نبرة أخافتنى :

ـ عرفت ذلك منذ النظرة الاولى ، من أجل هذا ...

وسكتت فى الحال . كأنما كادت تنزلق على شفا غلطة. ولم تمنحنى وقتا أسألها فيه ، ونهضت وهى تنظر الىساعة فى معصمها ، ثم قالت :

ـ ألا تخرج ؟

ـ نعم

ولم أتحرك من مكانى . ولم أنتبه الى الكلمة وهى تخرج من فمى . ولم أفطن الى عبارتها الاخيرة . ولم أحس ذهابها الىحجرة النوم وعودتها بملابس الخروج،بعد زمن لاأستطيع

تقـديره ، ولكنى فطنت هذه المرة الى قولهـا فى صـيحة دهشة

ـ عجبا ! ألم تتحرك ؟ ماذا بك ؟

فرفعت رأسى ونظرت حولى وقمت للفور أقول فى شبه فزع :

ـ أنت ذاهبة ؟

فحملقت فى وجهى . فتذكرت ، وأسرعت فخلعت عباءتى وارتديت سترتى وتناولت عصاى وأنا أقول :

ـ نعم ، فلنخرج للعشاء .. أين ؟

ـعند (الاب لويس) فليس له فى باريس نظير فىشى الدجاج !

جلسنا فى ذلك المطعم الىخوان بالقرب من النارالمستعرة فى شبه موقد بالجدار نصبت فيه « أسياخ » طويلة رفيعة قد رشق بها دجاج شهى ، تلحسه عن بعد أطراف ألسنة من اللهب حمراء ، وقـد جاءنا الغـلام بورقـة « النبيـذ » البورجونى فنظرت فيها « ناتالى » وقالت :

ـ « شابلى »

ـ زجاجة « شابلى » !

قالها الغلام وهو ينظر الى . فقلت دون وعى :

ـ نعم . وانا « بومار »

ـ زجاجة « بومار »

ـ نعم ، نعم

فصاحت الجميلة :

ـ زجاجتان ؟ هذا كثير ٠ انى لا أريدأن يذهب لبمولاى هرون الرشيد

فقلت فى شىء من المرارة وكأنى أخاطب نفسى :

ـ لقد ذهب لب مولاك هرون الرشيد وانتهى الامر !

فضحكت ضحكة رقيقة ونهضت قائلة انها تريد مكان «التواليت» . وتركتنى مطرقا غارقا فى جو مبهم من الانقباض . وعادت بعد برهة الى جانبى دون أن أشعر بها ٠ فرفعت رأسى اليها فوجدتها تتأمل وجهها فى مرآة صغيرة بين أناملها ٠ فجعلت أتأمله أنا أيضا وجعلت عينى تتنقل من جبينها الى أنفها الى شفتيها الى يديها الى نحرها ٠ وقد غمر نفسى خوف وكآبة ٠ وأدركت لاول مرة الوزن الحقيقى لتلك الكلمة التى قلناها فى خفة وبساطة أنا وموريس : « الجمال المخيف » ٠ وأقبل علينا الغلام مسرعا يعلن أن فى التليفون من يطلب «السيدة» ، وأشار الى ناتالى . فنهضت على عجل واستأذنتنى بنظرة ومضت ٠ ففهمت أن ذهابها فى المرة الاولى لم يكن للزينة وحدها ، وعادت بعد قليل وجلست دون أن تلفظ حرفا ٠ وجاء النبيذ المعتق فى زجاجتين يعلوهما التراب والعنكبوت ، وسكب الغلام فى الاكواب . ورفعت ناتالى كأسها الى شفتيها الرطبتين وهى تقول فى صوت كالهمس :

– فى صحة مولاى !

– فى صحة جاريتنا !

قلتها دون أن أضحك ودون أن أبسم وفى شىء من الصرامة وسوء الخلق . وأردت أن أرفع الكوب الى فمى فاهتز فى يدى اهتزازا كاد يريق ما فيه على غطاء الخوان الجميل . ونظرت ناتالى الى يدى المرتجفة والى جهدى فى حمل الكأس المتلاعبة، والى يأسى ووضعى الكوب فى مكانه من المائدة دون أن أشرب شيئا فقالت فى نبرة غريبة :

– الآن فلتسمنى ما شئت !

▭

ذهبنا بعد العشاء الى حانة « الارنب المخيـــف » حيث سمعنا أغانى باريس القديمة . وأقول « سمعنا » من قبيل التجاوز . فأنا لم أسمع شيئا ولم أع شـــيئا . وعدنا فى منتصف الليل أو بعده بقليل أو كثير . لا أدرى . ودخلنا (الاستديو) ووقفت عند الستار الموصل الى القاعة الكبرى ومددت يدى الى ناتالى مشيرا بالتحية :

– نوما هانئا يا سيدتى

وتركتها تصعد الى حجرة النوم . وذهبت أنا الى الفراش الممدود بقرب المكتب . فخلعت ملابسى على عجـــل وأطفأت النور وارتميت بين الوسائد أطلب النعـــاس . ولكن نور حجرتها كان ينفذ الى من نافذتها المطلة على قاعتى . فلم يغمض لى جفن حتى أطفأت هى نورها . وشمل الظلام المكان

فحسبت انى عندئذ سأنام · ولكن النوم امتنع على · وجعلت أتقلب الساعات يمينا وشمالا فى طلب اغفاءة لا تأتى الى أن وثقت من أن النوم الليلة شيء بعيد المنال · فقمت وأضأت القاعة وجلست الى المكتب أقرأ كتابا · وقرأت بالفعل سطرين أو ثلاثة ثم وضعت رأسى بين كفى ولبثت على هذه الحال حتى طلع النهار وسمعت صوت سيارات (الاوتوبيس) الاولى تنطلق كالفرحة بالصباح الباكر فى (بولفار رسباى) فنهضت من فورى · وارتديت ملابس الخروج فى غير جلبة ولا ضوضاء حتى لا أوقظها · وقبل أن أغادر المكان ذهبت الى المكتب وتركت عليه هذه الكلمة :

سيدتى :

لم يبق أمامى غير الفرار

▭

انطلقت من ساعتى الى فندق (جراند أوتيل) بميدان الاوبرا ، وسألت عن (الشيخ) · فقيل لى انه قد استيقظ مبكرا كعادته · وانه الآن يتناول طعام الافطار فى حجرته · فبعثت اليه بطاقتى ، فأذن لى فى الدخول عليه من الفور · ولم يكد يرانى حتى صاح بى :

ـ أيها الرجل السعيد ! ما كنت أتوقع رؤيتك ها هنا بهذه السرعة ! أين الجميلة التى وضعت يدك فى يدها البارحة ؟

ـ قد طلقتها

فحملق فى وجهى كمن ظن بى مسا :

ـ أنت ؟ !

فنظرت اليه ولم أتكلم . فمضى متعجبا :

ـ أنت .. فعلت هذا ؟ !

فقلت وعيناى الى الارض كمن اقترف اثما :

ـ نعم ...

فقال الشيخ وكأنما يخاطب نفسه :

ـ أنت الذى أراد أمس أن يقبل قدمى من أجلها ! !

فتشجعت ورفعت رأسى قائلا له :

ـ اسمع يا سيدى الجليل ...

ـ لا أريد أن أسمع فى أمرك شيئا

وجعل يسير فى الحجرة ذهابا وايابا . وهو مطرق حزين، كأنما فقد أسهما ذات شأن فى (بورصة) أعمـــاله فى (بخارست) ! ولم أدر ماذا أصنع لأهون عليه الخطب . فلزمت الصمت . وجعل هو يضرب كفا على كف ويقول :

ـ طلقها !

فاعترضته قائلا :

ـ اصغ الى لحظة ...

فلم يلتفت الى ومضى يقول :

ـ طلقها هرون الرشيد ! بعد ليلة . لا بعد ألف ليلة وليلة !

فنهضت اليه متوسلا متذللا :

ـ يا سيدى ! ألا تصبر على حتى أوافيك بالاســـباب وأواتيك بالحجج !

فصاح فى وجهى :

ـ حجج ! أتريد أيضا أن تقدم حججا على هذا الكفر !

فأطرقت فى خزى • ومضى الشيخ يقول :

ـ يا للقسوة !

فرفعت رأسى قائلا :

ـ قسوة من ؟

فلم يحفل بى وجعل يقول :

ـ أتزعم أن لك قلبا من لحم ودم !

فلفظت زفرة من أعماق نفسى المهدمة :

ـ آه يا سيدى • انك تظلمنى • وحق جمال تلك الفاتنة أنى لم أعرف طعم النوم منذ فارقتنا

فأنقذتنى هذه الآهة • وأقبل على الشيخ مسرعا • وقد انقلب غضبه وسخطه حدبا وعطفا :

ـ أرنى عينيك أيها المسكين !

ووضع منظاره على أنفه وجعل يحد الى البصر كأنه طبيب عيون يفحص عين مريض :

ـ نعم ، نعم ••• أرى تباريح الهوى ، وتباشير الألم ••

ـ تباشير ٠٠؟!

قلتها وأنا أحملق فيه ٠ لكن الشيخ جذب مقعـــدا أدناه مني ، وجلس فيه راضيا باسما ، وأشعل ســيجارا وجعل ينفخ الدخان في راحة واطمئنان ويقول :

ـ الآن ، هات حججك وأسبابك !

فنظرت الى الرجل طويلا دون أن أتكلم ، نظرة المستطلع المتسائل عن سر اغتباط هذا الرجل لعذابي كأن بيني وبينه ثأرا قديما ٠ ورفع الرجل سيجاره عن فمه ، ولحظني بطرف عينه وقال :

ـ قبل ذلك اريد أن أسألك : هل تعـــرف شيئا عن ناتالي ٠٠؟

فأجبت :

ـ مطلقا ٠ امرأة فاتنة وكفى !

فقال :

ـ اسمح لي أذن أن أقول لك أني أعرف أكثر منك قليلا . لقد فتن بها بين من فتن ثلاثة رجال، أولهم مات منتحرا ٠٠

فتراجعت ذعرا في مقعدي صائحا :

ـ الله أكبر !

فلم يهدىء الشيخ من روعي ولم يلتفت الي،ومضى يقول:

ـ وثانيهم ٠٠٠ فقد ثروته

ـ معقول ٠ والثالث ؟

ـ الثالث وكان فنانا ٠٠٠

ـ آه ٠٠

ونهضت أرتمى على قدمى الشيخ :

ـ أتوسل اليك ٠٠ أتوسل اليك أن تنقذنى مما أنا فيه ٠٠ قبل فوات الاوان !

ـ والثالث ٠٠٠

فصحت به :

ـ لا أريد أن أعرف ما حدث للثالث ٠٠٠ ارحمنى ! لقد تبت وأنبت ٠٠

ـ والثالث ٠٠ كان فنانا ٠٠ موسيقيا

فبادرت صائحا :

ـ آه ٠٠ أحد أمرين : اما انه باع « الكمنجة » واما انه شنق نفسه بالاوتار !

فابتسم الشيخ وقال :

ـ لا هذا ولا ذاك ٠ وضع لهـــا « فالس » يعد من خير ما أنتجته قريحته

فاطمأنت نفسى قليلاوهدأ ثائرىوقلت كالمخاطب لنفسى:

ـ نعم ٠ ليس للفنان الحق فى أن يموت بالحب أو بغيره ٠ قبل أن يؤدى الاتاوة الى اله الفن !

فقال الشيخ :

ـ لقد قالت هى أيضا ذلك

ـ ماذا قالت ؟

ـ قالت ونحن نتآمر عليك ٠٠٠

ـ تتآمران على ؟!٠٠

فأحس الشيخ أنّ لسانه قد زل ٠ ولم يستطع التراجع، فأقبل على قائلا :

ـ آن الاوان أن أعترف لك أيها الصـــديق بما كان من الأمر

ـ تعترف ٠٠؟!

قلتها فى دهشة ، وقد أدركت أن القناع سيسقط أخيرا عن وجه حقيقة أخفيت عنى ٠ وتنحنح الشيخ وقال :

ـ قبل كل شىء ينبغى أن تعلم انى من هواة الرياضة ٠ وأحب الرياضة عندى تسلق الجبـــال وصيد الوعول ٠ أما التسلق فها أنا ذا آت منه ٠ وأما الصيد فان موسمه يبدأ فى سبتمبر ٠٠ وأحيانا فى اكتوبر ٠ هذا يتوقف على المنطقة وعلى ٠٠

وقاطعته قائلا :

ـ أحسب أنك اردت ان تحادثنى فى أمر يتعلق بى ؟

ـ انى انما أتكلم فيما يتعلق بك ٠ ان موسم الصيد فى سبتمبر أو فى اكتوبر ، أى بعد شهر طويل ٠ وانى لانتظر افتتاح الموسم نافذ الصبر

ولقد تحدثت فى ذلك الى الجميلة فى القطار ساعة العشاء،

فاذا هى أيضا تحب الصيد . كل أنواع الصيد: صيد الوعول وصيد القلوب، وجاء ذكرك ، وطاف بخاطرنا وصف صاحبك لك ساعة الشاى انك « عدو المرأة » ، فتراهنت الجميلة معى على أن تصوب الى قلبك سهما يدميه ويستقر فيه قبل صياح الديك ، فما رأيك ؟ انى أتمنى أن تربح الفاتنة الرهان . فليس من الكياسة وقد افتتحنا معا موسم الصيد أن أجعل سهمها يطيش !

وسكت الشيخ ونظر الى باسما ، فنظرت اليـــه ناقما ، وقلت فى سخرية مرة :

ـ ما كان أغناكما عن هذا التجشم ، وافتتـــاح موسم الصيد فى الصيف من أجل قنيصة هزيلة !

فقال الشيخ وهو يرسل الدخان فى الفضاء :

ـ قلبك الكبير ليس فريسة هزيلة !

فلزمت الصمت قليلا . وأطرقت لحظة . ثم قلت :

ـ والآن ... انت مغتبط بهذه الرياضة . وبرؤية دمى يشخب ؟

فقال :

ـ لقد نبهت جميلة الى مسألة الدم هذه . ولقد تكفلت لديها بتضميد الجرح . غير أنها قالت : « لا شأن لك به . ان دم الفنان من نصيب اله الفن دائما » !

فلم أجب. وجعلت أفكر . وقد انكشف لعينى كل الامر .

فما هو الا لعب هازلين مترفين · فنهضت ومددت يدى الى الشيخ الثرى قائلا :

ـ وداعا يا سيدى الرياضى البارع !

فصاح بى :

ـ هكذا سريعا !

فقلت :

ـ نعم ، ينبغى أن أذهب سريعا

ـ الى أين ؟

ـ الى اله الفن · ما دمتما قد خرجتكما من الامر وبرئت ذمتكما · وتركتمانى بدمى هبة له · فلاذهبن اليه · وهو لا ريب شاكر لكما العطية

ـ وأين هو ؟

ـ فى المعبد

ـ وما هو عنوان المعبد ؟

ـ يحفظ بشباك البوسته !

فضحك الشيخ وقال :

ـ انه اذن كثير التنقل · يذهب فى كل جهة بمعبده كما أذهب أنا بحقيبتى

ـ ويحب التسلق مثلك · ولكن جباله من نوع آخر

فأمسك الشيخ بيدى وجذبنى الى المقعد قائلا :

ـ اجلس هنيهة ، وحدثنى عنه !

فسحبت يدى فى رفق وقلت :

ـ لا أستطيع ذلك الآن • أعدك بذلك فى يوم آخر أما الآن فأرجو منك أن تدعنى أذهب

فنظر فى عينى مليا وقال :

ـ أتذهب اليها ؟

فاختلج قلبى :

ـ من هى !

فقال الشيخ فى نبرة المتسامح :

ـ فاتنتنا

ـ الراقصة !

قلتها فى شىء من عدم الاكتراث المصطنع، لا أظنه قد خفى على الشيخ • فقد لحظته ابتسم • لكننى مضـــيت فى كلام الخيال لاستر حقيقتى المضطربة :

ـ بل انى ذاهب اليه هو

فقال الشيخ فى تهكم خفيف :

ـ اله فنك !

ـ نعم

ـ وما وجه العجلة ؟ ما زال فى الوقت فسحة • ونحن ما زلنا فى الصباح الباكر • وما أحسبه بعد قد استيقظ هذا الاله البوهيمى !

فقلت :

ـ انه يتناول طعام افطـــاره الآن • وأمامه الابريق والفنجان • وهو لا شك ينتظر دمى حارا !

وأسرعت بتحية الشيخ ، وخرجت من حضرته فى شبه ركض •••

▭

عدت توا الى مسكنى فى ذلك « الاستديو » فلم أجد أثرا للراقصة • وهذا أمر طبيعى • لقد انصرفت بأمتعتها • ولم تترك لى غير بضعة أسطر خطتها بالقلم الرصاص تحت كلمتى التى كنت قد تركتها لها فوق المكتب • ولم تكن الورقة فى المكان الذى وضعتها فيه • بل وجدتها فى فم الدب الذى يزين جلده الابيض أرض القاعة الكبرى •••

فتحت الورقة وقرأت هذه الكلمات :

سيدى :

وأنا لم يبق لى الا أن أطرح القوس والنشاب وأذهب ، نفير السيارة يدعونى بالباب ، ونفير الصيد يؤذن بالانتهاء قبل صياح الديك ! لقد فرت القنيصة والسهم عالق بقلبها، وكل بغيتنا الرياضة لا الاحتـــفاظ بالجلود ، شـكرا على الضيافة ••

ناتالى •••

فطويت الورقة وألقيت بها على الارض بعيدا ، وجلست

على جلد الدب وأسندت رأسى الى رأســـه ، وقلت مخاطبا نفسى فى زفرة المحزون وآهة المجروح :

ـ لاتريد أن تحتفظ بجلدى ؟

□

مرت اللحظات وتعاقبت الساعات وأنا فى مكانى لاأبدى حراكا · ولقد فقدت كل ادراك للوقت فلم أدر هل انتصف النهار أو مالت الشمس الى المغيب · ولقد غامت السماء · كما غام كل شىء فى عينى · ولم أحس الجوع · ولم تنزع نفسى الى غير هذا السكون الكئيب

ورفعت رأسى آخر الامر ونظرت الى ما حولى ، فخيل الى أن كل شىء نائم جامـــد لا روح فيه · فأزهار الميمــــوزا والهورتنسيا بدت لى كأنها مطرقة هى الاخرى · وعروس الرقص « تربسيكور » راقدة فى اطارها كالمومياء · والنور الذى كان يتدفق من الجدران البلورية فيملأ المكان اشراقا ، انما يملأ الآن قلبى ليلا حالكا · كيف أستطيع الاقامة فى هذا المسكن الآن ؟ ان تلك الراقصة قد أفسدته على · لماذا دخلته لتخرج منه وشـــيكا ؟ لماذا جملته بوجودها وعطرته بأنفاسها وأحيت جماده بروحها ،لتتركه بعدئذ أوحش من القبر ؟

آه ·· بكم أشترى لحظة أخرى أراها فيها واقفة فى هذه القاعة وهى فى ذلك « الروب دى شامبر » الحريرى القرمزى

الموشى بذهب فى لون عينها !

انى لم أنم الليلة الماضية وهى بالقرب منى ٠ فهل أنام الليلة المقبلة وهى بعيدة عنى !

وارتعدت لهذه الفكرة ولم أحتمل تصورها ٠ فوثبت كالمجنون الى الطريق ، أبحث عنها ٠ وذكرت أنها تنزل فندق « ادوارد السابع » ٠ فقلت : هى ولا شك هناك ٠٠ فاستوقفت سيارة مارة انطلقت بى الى الفندق

ودخلت من ذلك الباب الدائر الى البهو ، وسألت فى عجلة موظف الفندق عن السيدة فقال لى :

ـ انها فى الخارج لم تعد الى الفندق بعد

فبادرت أسأل :

ـ ومتى خرجت ؟

ـ بعد الغداء

وكدت ألقى سؤالا آخر :

ـ مع من خرجت ؟

ولكن الله عصم لسانى من الزلل ، وحرت فيما ينبغى أن أفعل ، ورأيت آخر الامر أن أذهب ثم أعود فى المساء ، فخرجت الى مشرب صغير فى منعطف الطريق ، فجلست الى مائدة من موائده وطلبت كوبا من الجعة ، وضعته أمامى ولم أمد اليه يدى ، فقد كان جسمى وروحى بين يدى صورة ناتالى ٠٠٠٠

جاء المساء ، فعدت الى الفنـدق أسأل عن الجميلة .. فقيل لى انها جاءت . فأخرجت بطاقتى ودفعتها الى موظف الفندق ورجوته فى أن يقدمها اليها ويستأذن لى فى مقابلة صغيرة . وانتظرت فى البهو الجواب وأنا أتقلب على نار الخوف والقلق . ومضى قليل. واذا المصعد يهبط وفيه شاب أنيق يرتدى لباس السهرة فتقدم الى حاملا بطاقتى فى يده وقال :

– ان السيدة تعتذر . ان لحظاتها كلها مشغولة ، وهى تشكر لك الزيارة !

وانحنى قليلا ثم عاد أدراجه وارتقى بالمصعد واختفى عن نظرى كما اختفى كل شىء فى هذا الوجود . فقد اسودت الدنيا فى عينى . وكان خلفى مقعد وثير ضـخم فارتميت غارقا فيه ...

مر زمن لست أدرى مقداره ، ثبت بعده الى نفسى وهممت بالقيام والذهاب ، واذا أنا أرى المصعد يهبط واذا الجميلة فى رداء المساء البراق كأنها قطعة من الشمس تسـير على الارض ، قد خطت فى البهو نحو الباب الدائر يحيط بهـا فتيان ثلاثة يرتدون « الفراك » وكلهم جميل أنيق حليق وخرجوا خلفها الى سيارة فخمة تنتظرهم بالباب ، فتدافعوا بالمناكب يفتحون لها بابها .. ثم انطلقوا جميعا كما تنطلق الانشودة المرحة ..

ضربت على غير هدى فى حانات باريس وملاهيها حتى الهزيع الاخير من الليـل . ولم أجرؤ على العودة الى المسكن قبل الساعة التى قدرت أن النوم يقهرنى فيها قهرا

ودخلت فخلعت ثيابى توا ، وألقيت بجسمى على الفراش وأغمضت عينى ، واستعنت بعزيمة ماضـــية عـلى طلب النعاس . وخيل الى انى نجحت . فلقد رحت فى اغفاءة عميقة . ومضى وقت لست أدرى أهو دقيقة أم ساعة . واذا أنا انتفض انتفاضة أيقظتنى ، وكأنما شىء قد وخـــزنى فى قلبى . فقمت أصيح فى جوف الظلام :

ـ يا اله الفن ! لماذا تفعل بى ذلك ؟ لماذا تصنع بى ذلك دائما ؟ !

وذهب النوم من عينى . فجلست القرفصاء فى سريرى واضعا رأسى فى كفى، محدقا ببصرى فى سواد الليل المحيط بى . وجعلت أقول :

ـ آه ... ما من مرة صادفت فيها امرأة هزت نفسى الا كانت تلك هى النهاية ! لماذا يا اله الفن يروق لك دائما أن تجرح وتذل هذا القلب الذى هيىء لخدمتك !

وغرقت فى الصمت . ولكن كلمة « اله الفن » ما زالت تطن فى أذنى كأن لها حقيقة واقعة . وطفقت أردد :

ـ اله الفن ! اله الفن ! اله الفن !

نعم . انه هو وحده الذى أتوجه اليه مستجيرا من أثقال حياة يقودها بالسلاسل فى موكبه الحافل

ونظرت أمامى فى الظلام وقلت :

ـ انك فى المعبد ! آه لو اِلقيت الى نظرة من فوق عرشك!

وأحسست شيئا من العزاء فى هذه الفكرة • وجعلت أبحث عنه بعينى فى الظلام • ترى أين هو الآن ؟ لست أدرى لماذا تمثل لى عندئذ بناء « الموزارتيوم » الفخم الضخم فى « سالزبورج » ! هذه المؤسسة الدولية التى اشتركت فى انشائها الامم المتحضرة اعترافا بعبقرية « موزار » ، وجعلت منها معهدا عاليا لدراسة الموسيقى ومتحفا لآثاره ، ومسرحا لابراز أعماله • هنالك فى القاعة ذات الحيطان الذهبية ، حيث أصغيت الى « سانفونية جوبيتر » تسيل ألحانها كالماء الزلال من أصابع النبى « توسكانينى » ، خيل الى أنى سمعت همسات الاعجاب من اله الفن

ثم هنالك فى بناء المهرجان « الفشتسبيل هاوس » حيث شاهدت أوبرا « أورفيوس وايروديس » و « تريستان وايزولت » لمحت أيضا حركات تصفيق خفية من يدى اله الفن •••

وفى كنيسة « سان بيتر » حيث أصغيت الى ألحان موزار الدينية فحرت وتساءلت : أترى عبقرية موزار هى التى خدمت الكنيسة أم أن الكنيسة هى التى أظهرت عبقرية موزار ؟ هنالك أيضا شعرت كأن اله الفن كان حاضرا ينثر على تلك الانغام الملائكية ابتسامة الرضا

وأمام الكاتدرائية ثم فى صدر الجبل حيث رأيت قصة

« بيدرمان » وقصة « فوست » من اخراج « رينهارت » ، فوجدت التناسق الفنى والخلق الذهنى والتصور القوى على أتم ما يمكن أن يخرج من رأس فنان تمثيلى ، بدا لى أيضا أن اله الفن كان ناظرا فى سرور

نعم ٠ كل ذلك لا ريب فيه عندى ، انى موقن بأن اله الفن كان منى غير بعيد أمام كل هذه المظاهر الفنية العظيمة

آه ٠٠ ولكنى أريد أن أراه الساعة وجها لوجه ٠ لاجثو عند قدميه وأشكو اليه ٠٠٠

ومرة أخرى أرى فى الظلام دون أن أدرى السبب بعض ما رأيت من مناظر سالزبورج ٠ فتلك بحيرة « فولفجانج » على شاطئها فندق « الحصان الابيض » كأنه طير يرد الماء ٠ وهذه بحيرة « زل آم سى » فى قاع جدران عالية من جبال تحيط بها كأنها آنية من الخزف الازرق صنعها مهرة فنانى فنيسيا

نعم ٠ ها هنا الطبيعة الألهية والعبقرية الآدمية تلتقيان!

ها هنا يد السماء فى هذه الجبال والبحيرات، ويد الانسان فى هذه المؤلفات التى خلفها موزار تتصافحان !

فى هذا البرزخ بين الارض والسماء ، وفوق هذا الجسر بين القدرة العلوية والموهبة البشرية ، لمحت فى الظلام عجلة تشبه عجلات قدماء المصريين ٠ تأتى مسرعة يجرها ثمانية جياد شهباء ، كتلك الجياد المطهمة الجميلة التى شاهدت رسمها يزين سقف قاعة التدخين الكبرى فى بيت المهرجان!

وتقدمت العجلة فى دوى من صليل السلاسل وصهيل الخيول ، يحف بها موكب لم أر له آخرا . ولم أستطع أن أميز وجها من الوجوه • فقد كنت فى ذيل الصفوف أسير دامى القدمين مقيدا فى أغلال من حبال « الليف » تربطنى مع غيرى من الألوف ، كأننا أسرى من العبيد خلف عجلة رمسيس المنتصر

ووقفت العجلة ووقفنا أمام بحيرة « زل آم سى » وقد صفا ماؤها صفاء دمعة الحسناء • ورق النسيم•وتألق حلى السماء واذا أجسام بضة مضيئة كأنها قطع النور تسبح فى البحيرة ثم تخرج متدثرة فى غلائل دمقسية مختلفة الالوان • واذا هى ترقص حول العجلة رقصات الهية كأنها رقصات «سالومى» فى السبع الغلائل الحريرية

فحددت البصر الى الراقصات الجميلات ، فاذا بينهن نساء قد عرفتهن فى يوم من الايام • فتلك « سنية » وتلك «ريم» وتلك « سوزى » وهذه ••• عجبا ••• عجبا يا الهى ••• وهذه « ناتالى » •••

نعم • هذه ناتالى بعينها فى تمايلها اللطيف الذى يماثل تمايل السنبلة فى الحقول ، كما رأيتها تفعل على وقع أنغام « رقصة الازهار » لتشايكوفسكى • ورقص الجميع عند أقدام اله الفن • تحت أنظار العبيد الملتهبة • وحدق الاله فى عيون أسراه وأدرك ما بهم ، فسلم الى كل راقصة قوسا ونشابا وبضع زهرات • فقذفن الاسرى بالزهرات •

فالتقطوها كالمجانين • وأراد بعضهم أن يقطع الحبال ويجرى نحوهن ، فأومأ اليهن اله الفن ، فرفعن القسى فى أيديهن ورمين •••

آه •• انى أعرف الساعة فى قلبى سهاما أربعة منغرسة فيه كأنها السنابل • آخرها ذلك السهم المنطلق من قوس الراقصة البولونية •••

وصحت عندئذ صيحة مدوية ، التفت إليها اله الفن قائلا:

ـ من هذا ؟

فرفعت صوتا متمردا قاصفا :

ـ لماذا تفعل بنا هذا ؟

فنظر الى حيث أقف وقال :

ـ عبد يعترض ؟ !

فقلت فى ذلة واطراق :

ـ حاش أن أعترض • انما أنا أسأل عن العلة وأطلب أن أفهم الحكمة •••

فأجاب فى هدوء وجلال :

ـ أنتم جميعا فى خدمتى • أنتم لى وما ملكت أيديكم • أنتم رقيق مشدود الى عجلتى • لكم أن تنظروا الى راقصات معبدى ، وأن تتأملوا جمالهن ، وأن تلتقطوا أزهارهن ، وأن تستلهموا حسنهن وحبهن ، ولكن اذكروا دائما أنهن لسن لكم • كل مالكم من متاع حقيقى هو هذه الحبال من الليف

التى تربطكم أبدا الى عجلتى !

فصحت به :

ـ أبهذا نخدمك ؟

فقال :

ـ نعم ... !

فصحت :

ـ ماذا نصنع لك ؟

فقال :

ـ تصنعون لى أردية جميلة

فأدركت عندئذ حقيقة الموقف . غير انى تجرأت وقلت :

ـ وهل نستطيع ذلك وقلوبنا قد رشقت بالسهام ؟!

فابتسم وقال :

ـ ألم تر الخياط الذى يفصل لك رداءك كيف يعلق بذراعه قلبا من القطن قد غرست فيه الدبابيس !. هذا عمله .. أنتم أيضا معشر الخياطين المنوطين بصنع أرديتى يجب أن تكون لكم قلوب قد غرست فيها السهام ! هذا عملكم !

فتفكرت قليلا ، وقد أفحمنى الجـــواب ، وأشرت الى الراقصات قائلا :

ـ وهؤلاءهن المكلفات بتوريد الدبابيس !

فأجاب فى ابتسامته الخفيفة :

ـ أراك الآن قد فهمت

فأطرقت مليا • وقلت مخاطبا نفسى :

ـ نعم ، نعم •••

ثم التفت اليه ، وأنا أخر ساجدا مستغفرا :

ـ عفوك ! لقد نسيت أن هذا من عملنا • وأن تفصيل أرديتك فى حاجة الى كل هذه الادوات •••

وشعرت بعدئذ براحة تملأ نفسى ، وأخذنى نوم عميق، لم أستيقظ منه الا فى ظهر اليوم التالى • فنهضت وأنا لا أذكر ناتالى • ولكنى ذكرت صاحبى موريس وقلت :

ـ عجبا ! يخيل الى أن هذا الخبيث قد حدثنى فى أمر يشبه مسألة الدبابيس • ولقد تمنى ذلك هو أيضا •وأراد أن يحملنى على الاكثار من صنع الاردية ، كأنه أحد سماسرة الخياطين !

وارتديت ثيابى على عجل وأنا أقول :

ـ الى العمل ! الى العمل !

ويممت شطر « شباك البوستة العمومية » ، حيث وجدت فى انتظارى رسالة من صاحبى الفرنسى يقول فيها :

« صديقى •••

« أبادر بالكتابة اليك ، لان قلبى يحدثنى أن الرقصة الاخيرة قد انتجت أثرها • وان قلبك النائم المتثائب قد استيقظ • وانى لاسمع له على البعد صوتا كفوران الشمبانيا ذات الحبب فى الزجاجة المختومة • فعلينا اذن أن نسرع اليه بالكؤوس

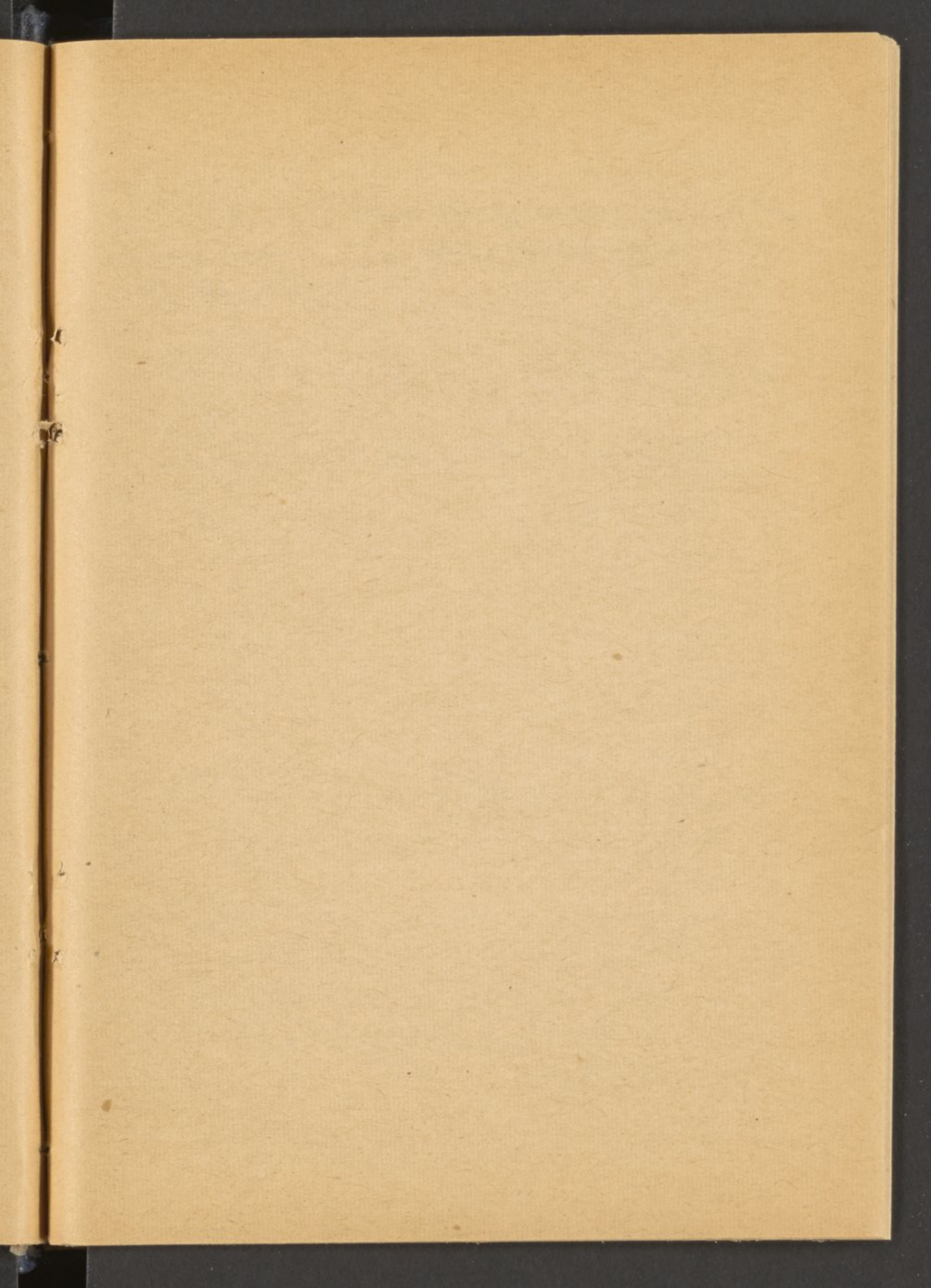
« انى أتناول العشاء دائما فى قهـوة « سيرانو » التى تحبها بمونمارتر • انى أنتظرك، والاعمال تنتظرك ، فارجع الى أحضان الفن

موريس »

فوضعت الرسالة فى جيبى • وتنهدت من أعماق قلبى المرصع بالسهام :

ـ نعم وا أسفاه ! ليس لى دائما غير أحضان الفن !





فهرس

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيزجاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم احمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

ذو النورين عثمان بن عفان
تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

مدرسة المغفلين
تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة

الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

علمتنى الحياة
لنخبة من الشرق والغرب

عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

الله
تأليف عباس محمود العقاد

عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

نساء النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ثائرون
تأليف محمود تيمور

زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

ألف ليلة وليلة
(الجزء الاول)

عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

ألف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكتبات الشهيرة وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

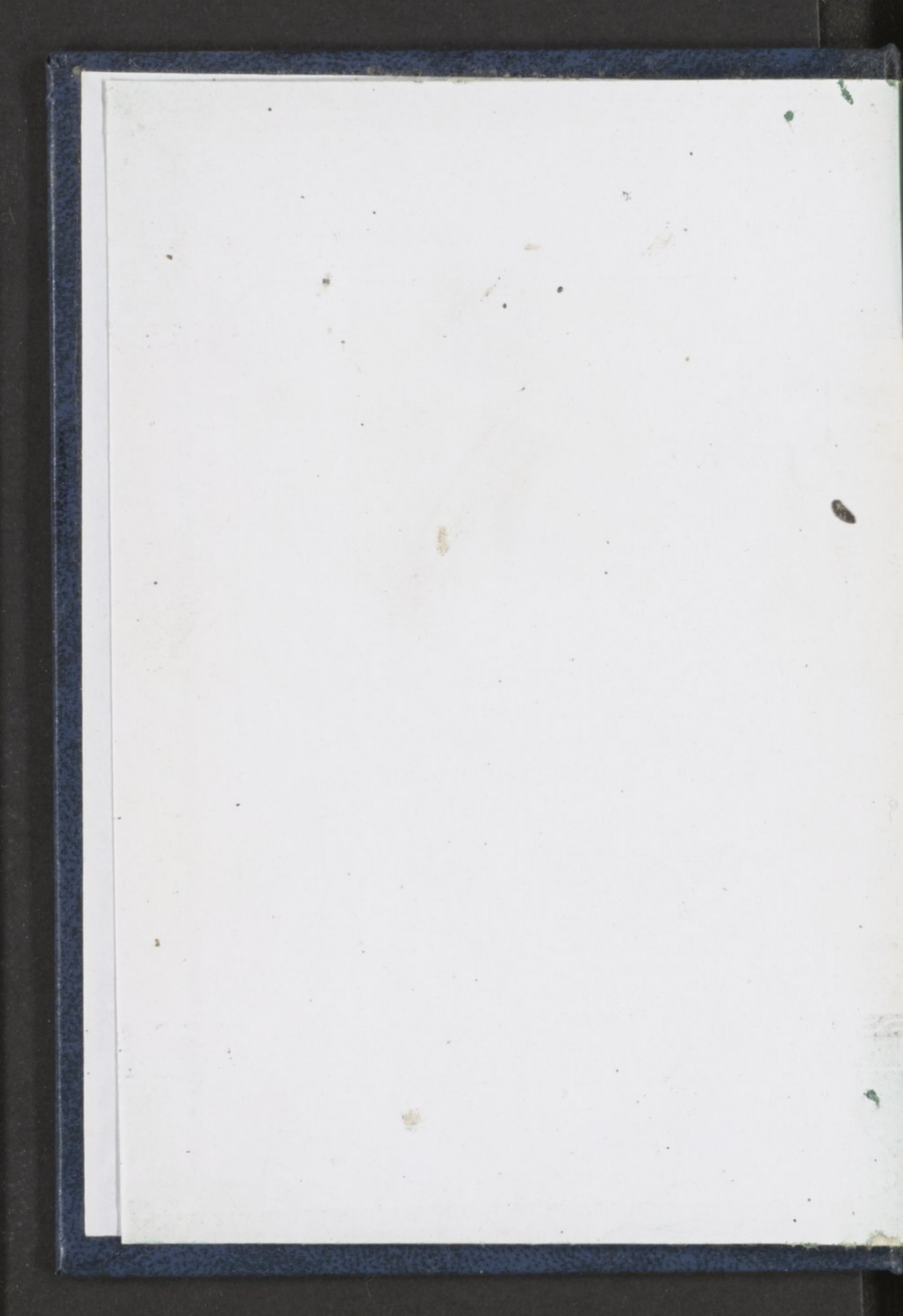
سوريا ولبنان :	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العراق :	السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
ساحل الذهب :	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 7, Bishopsthorpe Road, Sydenham, London S.E. 26, England.

هذا الكتاب

اخترنا لهذا الكتاب اسم « مدرسة الشيطان » . وقد رأى المؤلف أن هذا الاسم يتفق حقا وما حواه من قصص شائق وحوار رائع ، وانتاج فنى هو من وحى شيطان الفن ومن صنعه وابداعه . فكتب فى مقدمته يفسر المقصود من هذه التسمية ، وبأن الغرض من الشيطان ومدرسة الشيطان هو شيطان الفن ، ومدرسة شيطان الفن

ولا ريب أن الفنانين لا يستلهمون ابليس ، لأنه وان كان فنانا قديما ، فهو فنان فى الشر. أما شيطان الفن فهو فنان فى الخير ، يفتح أبواب المعرفة ، ويسمو بالانسان الى الحق ويهدى البشر الى نعيم العقل ولذة الروح ، فيعيشون فى آفاق الفكر ، ورفعة النفس ، وينعمون بألوان الجمال

وكذلك كان الاستاذ توفيق الحكيم فى هذا الكتاب الطريف الذى أوحى اليه شيطان الفن بكل ما فيه من قصص بديع ، وحوار جميل ، وأفكار صائبة ولفتات اجتماعية وأدبية سديدة ، وابتكار يتسم بالبراعة والابداع






NYU - BOBST
31142 02822 8248
PJ7828.K52 M24 1955
Madrasat a